جهود الأمير المنذر بن محمّد الأمويّ في مواجهة الأخطار الداخليّة في الأندلس (٢٣٨ - ٢٧٣هـ/٨٥٢- ٨٨٦م)

عامر القبج *

تاريخ تسلم البحث: ٢٠١٧/١٢/٠٦م تاريخ قبوله للنشر: ٢٠١٨/٠٢/٠٧م

الملخص

تهدفُ هذه الدِّراسةُ إلى تسليط الضَّوء على جهود الأمير المنذر بن محمَّد بن عبد الرَّحمن في مواجهة الأخطار الَّتي تعرَّضت لها الإمارة الأمويَّة في الأندلس في عهد أبيه (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م)، وخلُصت الدِّراسة إلى قيامه بدورٍ نشطٍ في قيادة ما يزيد على عشْر حملات عسكريَّة ضدَّ مملكة أستورياس الإسبانيَّة في الشَّمال، فحقَّق النَّصر في معظمها كمعركتَيِّ فجِّ المَركويز وأيْبار، وهُزم في بعضها كما حدث في ليون وبييرثو في المملكة المذكورة، وأسهمت نشاطاتُه العسكريَّة في الحدِّ من تسارُع زحف الإسبان نحو الجنوب، وبذل جهوداً كبيرة في محاربة المولَّدين المتمرِّدين على الدَّولة، فأثمرت نشاطاته في كبْحِ جِماحهم في طليطلة والغرب الأندلسي، بينما بقيت مناطق الثَّغر الأعلى والجنوب على حالهما من التمرُّد والعصيان.

كلمات دالَّة: المنذر – الأندلس – المولَّدون – الإسبان.

Abstract

The main focus of this study is the efforts of Prince Al-Munthir Bin Mohammad in facing internal dangers in Al-Andalus, during his father's reign (238-273 H.\852-886 A.D). The study concluded that he led more than ten military campaigns against the Spanish kingdoms in the north. He achieved victory in most of them, such as the battles of Morcuera and Aybar, and was defeated in some, as in Leon and Bierzo in Asturias. His military activities contributed in reducing Spanish advance towards the south. He also fought Muladis' rebels, and his efforts succeeded in curbing them in the Toledo and

* أستاذ مساعد، جامعة النَّجاح الوطنيَّة، فلسطين.

Gharb Al-Andalus, while the Upper March and southern regions remained rebellious.

Keywords: Al-Munthir - Al-Andalus - Muladis - Spaniards.

المقدمة:

واجهت الإمارةُ الأمويَّة في الأندلس العديد من الأخطار الدّاخليَّة خلال القرن الثَّالث الهجري/التَّاسع الميلادي، وبخاصَّة منذ مطلع عهد الأمير أبي عبدالله محمَّد بن عبدالرَّحمن الأوسط (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م)[١]، واستمرَّت هذه الأخطار مهدِّدة أمنها ووحدة أراضيها حتَّى مطلع القرن اللّاحق، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الخطر الأكبر الذي كان يهدِّد الوجود الإسلامي في الأندلس تمثَّل بمملكة أستورياس *(Asturias)* المسيحيَّة الإسبانيَّة في شمال غرب البلاد، والتي استمرَّت في ممارسة – ما يُطلق عليها بعضُ المؤرِّخين – حروب الاسترداد *(Reconquista)*، بهدف طرد المسلمين من البلاد. ثمَّ الأخطار النَّاجمة عن حركات التمرُّد الدّاخليَّة من قِبَل المولَّدين، الذين استقلُّوا بحُكم مناطقهم، وتحالفوا مع الإسبان، ولم تعُد سُلطة الإمارة الأمويَّة تشتمل في كثيرٍ من الأحيان سوى على مناطق محدودة إضافةً إلى الحاضرة وأحوازها، ممَّا اضطرَّها إلى بذل جهودٍ كبيرة ومتواصلة لمواجهة هذه الأخطار، وعلى الرَّغم من بعض مظاهر النَّجاح الَّتي حقَّقتها؛ فإنَّ كثيراً من الموارد البشريَّة والاقتصاديَّة قد استُنزفت، وبقيت الدَّولةُ ترزحُ تحت نير التَّشرذم السِّياسي والجغرافي، فاستغلَّ الإسبانُ ذلك وأفادوا منه في تحقيق التَّقدُّم تلو الآخر على حساب الأراضي الإسلاميَّة، ونتيجة لهذا كلِّه؛ عُدَّت هذه الحقبة من أكثر العصور الأندلسيَّة خطورة، حتى أُطلِق عليها "عصر الطَّوائف المبكِّرة" (**نعنعي**، (د. ت): ٢٥٤).

فعندما اعتلى الأمير محمَّد سُدَّة الإمارة الأمويَّة، كان يقف على رأس مملكة أستورياس الملك أردونيو الأول *(Ordono I)* (٨٥٠-٨٦٦م/٢٣٦-٢٥٢هـ)[٢]، ثمَّ خليفته الملك الفونسو الثَّالث *(Alfonso III)* (٨٦٦-٩١٠م/٢٥٢-٢٩٨هـ)[٣] اللَّذان سعيا كأسلافهما إلى مدِّ حدودهما إلى الجنوب، فنجحا في تحقيق إنجازات ملموسة، وأصبحت منطقةُ الحدود الفاصلة بين المسيحيِّين والأندلسيِّين تمتدُّ من بمبلونة[٤] *(Pamplona)* في الشَّمال ثم تنحدر إلى شمال وشقة[٥] *(Huesca)* وتطيلة[٦] *(Tudela)* على نهر إيبرو *(Ebro)*، ثم تنعطف إلى الجنوب الشَّرقي فتسير غرباً مع نهر دويرة *(Duero)* على امتداد الخطِّ الواصل بين سيمانكس[٧] *(Simancas)* وسمورة[٨] *(Zamora)* وبراغا *(Braga)* حتى الأطلسي، يُضاف إلى ذلك مملكة بمبلونة (نافار *Navarra*) التي كانت تمتدُّ جنوباً حتَّى نهر أراغون *(Aragon)* (**بروفنسال**، ٢٠٠٠: ٢٥٦)، أما إقليم

كاتالونيا (*Cataluna*) وعاصمته برشلونة (*Barcelona*)؛ فقد حكمه المسلمون منذ الفتح حتَّى قيام الفرنجة بالسَّيطرة عليه خلال الفترة ١٦٩-١٩٥هـ/٧٨٥-٨١١م، وبقي مثار نزاع بين كلٍّ من الفرنجة والإسبان والأندلسيّين (**Chapman, 1930, p: 56**).

ويتَّضح ممَّا ذُكر أنَّ نهر دويرة في شمال البلاد قد شكَّل حدّاً فاصلاً بين الممالك الإسبانيَّة والأندلسيَّين حتَّى بداية الرُّبع الأخير من القرن الثَّالث الهجري/التَّاسع الميلادي، ممَّا اضطرَّ المسلمين إلى تحويل المناطق المواجهة للحدود إلى مناطق ثغريَّة، فأنشأوا قلاعاً إسلاميَّة لمواجهة حصون الإسبان وقلاعهم (**أبو مصطفى، ١٩٩٧: ٩٥-٩٦**). وتمثَّلت المناطق الثَّغرية بالثَّغر الأعلى: ويُطلق عليه أيضاً الأقصى أو الشَّرقي، وكان يشمل المناطق الشَّماليَّة الشَّرقيَّة، وقاعدته سرقسطة (*Saragoza*)[٩]، ويضمُّ أيضاً وشقة وتطيلة ولاردة[١٠] (*Lerida*) وطرطوشة[١١] (*Tortosa*)، ويقع في مواجهة مملكة بمبلونة (أبو مصطفى، ١٩٩٧: ٩٧)، ثم الثَّغر الأوسط، ويمتدُّ من حدود كورة سرقسطة حتى كورة طليطلة، وأخيراً؛ الثَّغر الأدنى أو الجَوفي، المواجه لمملكة أستورياس، ويشمل المنطقة الغربيَّة الواقعة بين نهر دويرة ونهر التّاج، ومن قواعد هذا الثَّغر شنترين[١٢] (*Santaren*) وقُلُمرية[١٣] (*Coimbra*) وقورية[١٤] (*Coria*) وأشبونة[١٥] (*Lisbon*) (**أبو مصطفى، ١٩٩٧: ٩٨**).

وبالتَّوازي مع الأخطار الإسبانيَّة القادمة من الشَّمال؛ فقد اضطرَّت الإمارة الأمويَّة في عهد الأمير محمَّد إلى مواجهة تحدِّيات أخرى لا تقلُّ خطورة، وتمثَّل ذلك بالمولَّدين وتمرُّداتهم المتواصلة في وجه قرطبة. والمولَّدون هم الجيل الذي نشأ عن مصاهرة العرب والبربر للإسبان (**سالم، السَّيد، ١٩٩٩: ١٢٨**)، وكذلك المسيحيِّون المتحوِّلون إلى الإسلام، الذين وصفهم الإسبان بالمرتدِّين (*Renegados*) (**Chapman, 1930, p: 44, 111**) وعلى الرَّغم من إسلامهم واندماجهم في المجتمع الأندلسي؛ إلا أنهم ظلُّوا على الدَّوام يحتفظون بشخصيَّتهم، وبنزعتهم الاستقلاليَّة القائمة على كراهية العرب وبُغضهم، متعصِّبين لأصلهم ونسبهم القوطي، فخورين به، ومن مظاهر ذلك على سبيل المثال؛ احتفاظهم بأسمائهم القديمة (**عنان دولة، ج١، ص٣١٩؛ سالم، السَّيد، ١٩٩٩: ١٢٨-١٢٩**). ويرى المتعاطفون مع المولَّدين أنَّ ثوراتهم جاءت على خلفيَّة تفوُّق العنصر العربيِّ عليهم، والظُّلم الذي لحق بهم، وبخاصَّة في الوظائف ومواقع المسؤوليَّة المجتمعيَّة (**Cardoso, 2015, p: 82; O'Callaghan, 1975, p.111**)، بالإضافة إلى سياسة الدَّولة تجاه الأزمات الاقتصاديَّة في عهد الأمير محمَّد، فكان لهذه السِّياسة تأثيراتها السَّلبيَّة على المولَّدين، خاصَّة أنَّهم كانوا من أكثر فئات المجتمع إنتاجاً (**كحيلة، ١٩٩٣: ٢١٥**)، ويعتقد هؤلاء أيضاً أنَّ الحُكم الاستبدادي الأموي

من أهمِّ الأسباب التي جعلت المولَّدين يثورون في وجههم، رغم أنَّ هذا الادِّعاء لا يستندُ إلى أيِّ أساس تاريخي (سالم، سحر، ١٩٩١: ١/٢٢٤)، وأخيراً؛ اعتبر البعضُ ثوراتهم ضدَّ العرب مظهراً من مظاهر الحركة الوطنيَّة الإسبانيَّة (O'Callaghan, 1975, p: 111). ويُضاف إلى هؤلاء؛ المستعربون *(Mozarabes)*، الذين لم تخلُ ثورة من ثورات المولَّدين إلّا وكان لهم حضور فاعل فيها، وهم المسيحيُّون الذين ظلُّوا في مدنهم بعد الفتح وخضعوا للحكم الإسلاميِّ (نعنعي، (د. ت): ٢٢٦). وتُطلق عليهم المصادر الإسلاميَّة العجمَ، وأهلَ الذمَّة، والمعاهدين، وكانوا يدفعون الجزية، ولهم كنائسُهم وقضاتُهم ورئيسٌ يعرف بالقومِس(سالم، السَّيد، ١٩٩٩: ١٣٠).

ويُعدُّ بنو قَسيّ المولَّدون حكَّام الثَّغر الأعلى الأندلسي من أكثر الفئات حضوراً على جبهة الصراع الأمويِّ المولَّدي في الأندلس، وتراوحت سياستهم ما بين الاصطفاف إلى جانب الدَّولة أحياناً، وما بين التمرد والتَّحالف مع مملكتي أستورياس ونافارا في أكثر الأوقات، وينحدر هؤلاء من أصل نصراني، من نسل قومِس المناطق الشَّماليَّة قَسي القوطي *(Count Casius)*، الذي أسلم وانتظم نسلُه في جُملة المُضريِّين العرب، وكان حفيدُه موسى بن فرتون بن قسي قد أنجبَ: موسى ومطرِّف ولُبَّاً وغرسيه، ثم أنجب موسى بن موسى (موسى الثَّاني) (ت.٢٤٨هـ/٨٦٢م) من الأولاد لبَّاً(ت.٢٦١هـ/٨٧٥م) وإسماعيل(ت.٢٧٦هـ/٨٨٩م) ومطرِّف(ت.٢٥٩هـ/٨٧٣م) وفرتون(ت.بعد ٢٦٨هـ/٨٨١م) (ابن حزم، (د. ت): ٤٦٨)، وفي النِّصف الأول من القرن الثَّالث الهجري أصبح موسى الثَّاني زعيماً للثَّغر الأعلى، وارتبط بعلاقات مصاهرة مع الأمراء الإسبان، حيث زوَّج حفيدته أوريا *(Oria)* لفرتون الأنقَر ابن ملك بمبلونة غرسيه بن ونقة *(Fortun Garcia Iniquez of Pamplona)* (ت. ٩٢٢م/٣١٠هـ) (Cotarelo, 1933, p: 274)، ويبدو أنَّ السَّبب في عدم تحرُّج بني قسي من تزويج بناتهم من مسيحيِّين مردُّه إلى اعتزازهم بأصولهم القوطيَّة، والرَّغبة في تلقِّي الدَّعم ضدَّ قرطبة، بهدف تعزيز نفوذهم في مناطقهم.

وعلى الرَّغم من نزعة التمرُّد التي كانت تحكم سلوك موسى الثَّاني، وولائه الشَّكلي لحكومة قرطبة؛ فإنَّ الأمير محمَّد كان مضطرَّاً للاعتراف به سيَّداً على مناطق نفوذه، فعهد إليه القيام بالجهاد باسمه ضدَّ الممالك الإسبانيَّة في الشَّمال (بروفنسال، ٢٠٠٠: ٢٥٢)، فحقَّق انتصارات لافتة، وعلى إثرها نعت نفسَه بملك إسبانيا الثَّالث (Martinez de Velasco, 1880, p: 13)، ولكنَّ نفوذه ما لبث أن ضعف بعد الهزيمة التي تلقَّاها على يد كلٍّ من صهره غرسيه بن ونقة وملك أستورياس أردونيو الأول في موقعة جبل لاتورثي *(Laturcio)* التي تسمى أيضاً موقعة كلابيخو

(Clavijo) أو البلدة الثانية، بالقرب من لوجرونو *(Logrono)* عاصمة إقليم لاريوخا *(La Rioja)* شمال بلاد الأندلس عام ٢٤٥هـ/٨٥٩م **(Fernandez, 1976, I, p: 212)**.

ولم يكن مولَّدو مدينة طليطلة في تمرُّداتهم أقلَّ خطراً على الدَّولة من بني قسي، لا بل شكَّلت هذه المدينة مواطناً لحركات التَّمرُّد التي أرَّقت مضاجع السُّلطة المركزيَّة في قرطبة، وممَّا كان له دورٌ كبير في تشجيع سكانها على التمرُّد؛ كثرة عدد ساكنيها المولَّدين، ووعورة موقعها الجغرافي على المنحدر الصَّخري الممتدُّ نحو نهر التّاج، وإحاطة النَّهر بهذا المنحدر، فضلاً عن حصونها القويَّة وأسوارها العالية، ولمّا كانت في السَّابق عاصمة دولة القوط القديمة؛ فقد شكَّلت تربة خصبة لظهور ونموِّ التَّجمُّعات والتَّيارات المسيحيَّة الخطرة التي تولَّى كِبَرها المستعربون، وبخاصَّة القساوسة الَّذين دعوا إلى التَّحرُّر من الاضطهاد الدِّيني والاجتماعي، على حدِّ زعمهم **(عنان، دولة، ١٩٩٧: ٢٩٣/١، ٢٩٥؛ حتاملة، ٢٠٠٠: ٢٧١)**.

وشهد الغربُ الأندلسيُّ أيضاً تمرُّدات مولَّدية انطلاقاً من مدينتي ماردة[١٦] وبطليوس[١٧]، وضمَّت هذه المناطق أخلاطاً شتَّى من السُّكان، كالمولَّدين والمستعربين والبربر، وكانت بحكم وقوعها على حدود مملكة أستورياس تتلقَّى الدَّعم والتَّأييد من من هذه المملكة ضدَّ قرطبة **(حسين، ثورات، ١٩٩٣: ٣٥)**، وعُدّ عبدالرَّحمن بن مروان الجُلَيقي(ت. ٢٧٦هـ/٨٨٩م) من أبرز قادة مولَّدي الغرب المتمرِّدين، والَّذين تحالفوا مع الإسبان، فباتوا خنجراً مسموماً في الخاصرة الغربيَّة للدَّولة، ومن المفارقات الغريبة أنَّ أباه مروان بن يونس الجُلَيقي عامل الدَّولة على ماردة كان قد قُتل عام ٢١٣هـ/٨٢٨م على يد الثَّائرين من أبناء المدينة **(سالم، سحر، ١٩٩١: ٢٤٣/١)**، وتنحدرُ هذه الأسرة من أصول قوطيَّة جُليقيَّة استقرَّت في ماردة منذ أمدٍ طويل **(ابن القوطيَّة، ١٩٨٩: ١٠٠؛ الحميدي، ٢٠٠٨: ٤٠٢؛ ابن الخطيب، أعمال، ١٩٥٦: ٢١)**.

وفي منطقة أخرى من ذلك الفضاء الجغرافي الأندلسي، وبعد مرور ما يقرب من ثمانية وعشرين عاماً على بداية حكم الأمير محمَّد؛ بدأت تطفو على السَّطح بوادر حركة تمرُّد في المناطق الجبليَّة الجنوبيَّة من بلاد الأندلس، وبخاصَّة في كورة ريَّة الواقعة وسط أقاصي الجنوب الأندلسي، وممَّا أثار حفيظة مولَّديها على الدَّولة في عهد الأمير محمَّد؛ سياسة الشدَّة التي مارسها عمَّالُه تجاههم، وبخاصَّة عندما طالبوا أهلها بمتأخِّرات خراجيَّة كانت قد تراكمت عليهم، فامتنعوا، ممَّا اضطرَّ الدَّولة إلى إرغامهم على دفعها بالقوَّة عام ٢٦٥هـ/٨٧٩م، فقُتل من الفريقين خلقٌ كثير، وطرد المتمرِّدون عُمَّال الأمير من مدنهم **(ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٩٣-٣٩٤)**. وبقيت حركات التمرُّد تتململ في الجنوب إلى أن ظهر عمر بن حفصون (ت. ٣٠٥هـ/٩١٧م)، فجمع

شتاتها ووحَّد صفوفها تحت قيادته، مستغلّاً نزعة التمرُّد التي كانت تعشعش في نفوس مولَّدي تلك المنطقة، وعمرُ هذا هو سليلُ أسرة من المولَّدين القوط، ويتَّضح ذلك من خلال تسلسل نسبه: عمر بن حفص بن عمر بن جعفر بن شتيم بن ذبيان بن فرغلوش بن إذفونش (**ابن القوطيَّة، ١٩٨٩: ١٠٣؛ ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/١٠٦**)، وكان أوَّل من أسلم منهم جعفر بن شتيم، ففشا إسلامُه في عقبه، وسكنوا في أعمال رندة (*Ronda*) (**ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/١٠٦**)، وهي معقل حصين من أعمال تاكُرُنّا، بين إشبيلية ومالقة (**الحموي، ١٩٧٧: ٣/٧٣**)، ونشأ عمر نشأة قبيحة (**ابن الخطيب، الإحاطة، ١٩٧٤: ٤/٣٨-٣٩**)، فأرسله والده ليختفي في منطقة جبليَّة وعرة بالقرب من جبل وحصن بُبَشتر[١٨] (*Bobastro*)، فصار يغير ومعه قُطَّاع الطُّرق سلباً وتخريباً على ربوع الرِّيف (**بروفنسال، ٢٠٠٠: ٢٤٤**)، ثم قام بمساعدةٍ من أحد أعمامِه بجمع أربعين رجلاً، وجعلهم تحت إمرته في حصن بُبَشتر ليبدأ بالثَّورة ضدَّ الدَّولة عام ٢٦٧هـ/٨٨١م (**ابن القوطيَّة، ١٩٨٩: ١٠٤**)، ولم يكن ابن حفصون ثائراً عاديَّاً يسهل القضاء عليه، وإنما كان صعب المراس قويَّ التَّأثير في أتباعه (**حتاملة، ٢٠٠٠: ٢٩١**)، ولذلك سنرى عجز الأمير محمَّد عن إخضاعه رغم الحملات المتلاحقة التي وجَّهها لمحاربته، وعُدَّت ثورتُه من أهمِّ الثَّورات وأخطرها وأطولها مدَّة في التَّاريخ الأندلسي، إذ بدأت عام ٢٦٧هـ/٨٨١م ولم تتمكَّن حكومة قرطبة من القضاء على آخر قادتها إلّا عام ٣١٦هـ/٩٢٨م، على يد الخليفة عبدالرَّحمن النَّاصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م).

كانت هذه أهم الأخطار والتَّحديات التي وقفت في وجه الإمارة الأمويَّة خلال عهد الأمير محمَّد بن عبدالرَّحمن، ما استلزم من الدَّولة تسخير كافَّة الجهود من أجل مواجهتها ولجم خطرها، ومن الجدير ذكره أنَّ الأمير كان قد اختصَّ عدداً من أبنائه ممَّن اتَّصفوا بالنَّجابة والشَّجاعة بالخروج معه في الغزوات تارة، وقيادة الحملات العسكريَّة بأنفسهم تارة أخرى، وأسند إلى بعضهم ولاية الكُور، وكان لهم دورٌ كبيرٌ في حياة أبيهم السِّياسيَّة والعسكريَّة (**ابن الأبّار، ١٩٨٥: ٢/٣٦٦**)، ومن أبرز هؤلاء ابنُه ووليُّ عهده الأمير المنذر (ت. ٢٧٥هـ/٨٨٨م)[١٩]، ولعبت البيئة السِّياسيَّة التي عاش فيها في كنف والده دوراً كبيراً في صقل شخصيَّته، وبخاصَّة إذا ما علمنا أنَّ الأمير محمَّد قد آثره من بين أبنائه منذ صغر سنِّه، فأولاه ثقته، واختاره لجلائل الأمور، حتى صار الشَّخصيَّة الثَّانية في الدَّولة (**O'Callaghan, 1975, p: 114**).

دور الأمير المنذر في مواجهة الأخطار الشماليَّة: تمثَّلت الأخطار الشَّماليَّة في محاولات مملكتي أستورياس ونافارا الإسبانيَّتين انتزاع المزيد من المدن والأراضي الإسلاميَّة، بهدف توسيع نطاق حُكمهما، وذلك من خلال محاولة دفع حدودهما باتجاه الجنوب إلى ما وراء نهر

دويرة، وجنباً إلى جنب؛ التحدِّيات التي كانت تواجه الإمارة الأمويَّة من جانب المولَّدين بني قسي حُكّام الثَّغر الأعلى، ولعلَّ من الصُّعوبة بمكان فصل الخطرين عن بعضهما؛ لأسباب جيوسياسيَّة نابعة من تجاوُر حدود منطقة الثَّغر الأعلى وتداخُلها مع أراضي مملكة بمبلونة ومنطقة ألبة والقلاع[٢٠] (*Alava y Castilla*) وأراضي مملكة أستورياس، ومن هنا لا نكادُ نجدُ حملةً قُرطبيَّةً ضدَّ مولَّدي الثَّغر الأعلى إلّا وصاحبها توغُّل في الأراضي الإسبانيَّة، وبالمقابل اضطرَّت بعض الحملات الجهاديَّة إلى التَّعريج على منطقة الثَّغر الأعلى لمواجهة حالة التَّمرُّد التي لم تنقطع، كما سنرى.

فإلى جانب انشغال الأمير محمَّد في التَّصدِّي لحركات العصيان الدّاخليَّة وملاحقة زعمائها؛ شغلت الغزوات الجهاديَّة حيِّزاً كبيراً من اهتماماته، لاعتقاده أنَّ الجهاد ضرورةٌ وواجب، وخاصَّة بعد تعاظُم قوَّة الممالك الإسبانيَّة في الشَّمال، فكان يُشرف بنفسه على تجهيز الحملات ويتابعها بدقَّة، ويقف على رأس بعضها، وبسبب سياسته الجهاديَّة؛ وصفته المصادر المسيحيَّة أنَّه "عدوّ الرَّب والكنيسة، الأكثر حقداً على المسيحيِّين والأشدُّ كراهية لهم" (**O'Callaghan, 1975, p: 111**). وتمشياً مع السِّياسة المذكورة، قرَّر الأمير محمَّد في عام ٢٤٦هـ/٨٦٠م الردَّ بنفسه على الإسبان الَّذين عبروا نهر دويرة وتوغَّلوا داخل الأراضي الإسلاميَّة، فاصطحب ابنه المنذر وسار بالجيش الإسلامي حتى اجتاز نهر ايبرو، ووصل إلى ألبة والقلاع وجبال مملكة بمبلونة (**Lafuente, 1850, III, p: 311**)، وقتل خلقاً كثيراً من سكَّانها، وخرَّب أشجارها وزروعها، وعاث في نواحيها مدَّة اثنين وثلاثين يوماً، وافتتح العديد من الحصون، ومنها حصن القشتل أو القشتيل (*Carcastillo*)، وتمكَّن من أسْر العديد من قادة الإسبان ونبلائهم، ومنهم الأمير فرتون بن غرسيه صهر بني قسي، فأُخذ إلى قرطبة، واعتقل فيها زُهاء عشرين عاماً (**ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣١٠؛ ابن الأثير، ١٩٨٧: ٦/١٣٥؛ ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٩٧**).

وبدَت المصادر المسيحيَّة غير واثقة من دقَّة التَّواريخ حول الأحداث التي جرت على الجبهة الشماليَّة خلال الفترة الواقعة من ٢٤٧-٢٤٩هـ/٨٦١-٨٦٣م، ولكنَّها أفادت أنَّ الأمير محمَّد دعا من خلال خُطباء المساجد إلى النَّفير والجهاد في سبيل الله، ولمَّا اكتملت التَّحضيرات؛ سار بقوَّاته التي اشتملت على كتيبة من فرسان ماردة إلى الشَّمال، ورافقه في حملته هذه ابنُه الأمير المنذر، وعندما وصل الجيش إلى غاليسيا (*Galicia*) وسانتياغو (*Santiago*) في أقصى شمال غرب البلاد؛ اختبأ الإسبانُ بين الصُّخور وفي الحصون المنيعة، مما مكَّن الجيش الإسلامي من تخريب أراضيهم وضياعهم في تلك المناطق، ثمَّ قفل الأميرُ راجعاً عن طريق

سمورة حتى وصل إلى قرطبة، وأمَّا فرسان ماردة فعادوا عن طريق سلمنقة[٢١] (*Salamanca*)، وردّاً على ذلك سار أردونيو على رأس جيشه، فدخل لوسيتانيا (*Lusitania*) جنوب مملكة أستورياس واجتاح أراضي أشبونة، وحرق القرى، واسترقَّ عدداً كبيراً من أهلها، وأخذ ماشيتهم، في محاولة للتَّعويض عن الخسائر التي كبَّدها محمَّد والمنذر للإسبان (Lafuente, 1850, III, p. 312; Conde, 1900, p: 301-302; Quadrado, 1885, p: 129).

ومن الأحداث المهمَّة التي وقعت في تلك الفترة، مقتلُ موسى الثَّاني عام ٢٤٨هـ/٨٦٢م خلال محاولاته مدَّ نفوذه صوب الجنوب؛ على يد بعض القوى المحليَّة في منطقة وادي الحجارة[٢٢]، وبصرْف النظَر عن طبيعة العلاقة المعقَّدة التي سادت بين موسى الثَّاني وأمير قرطبة؛ فإنَّه لا يختلف اثنان أنَّ موسى كان يقف بقوَّاته وقواعده في الشَّمال الشَّرقي في وجه الأطماع الإسبانيَّة بصلابة وقوَّة وجدارة، وبموته شعرت قرطبة أنَّها خسرت قائداً صلباً لطالما دافع عن مناطق نفوذه، ومن الصَّعب أن تجد الإمارة الأمويَّة له نظيراً؛ لكفاءته العسكريَّة (*Cardoso, 2015, p: 86*). واستطاع الأمير محمَّد عقب وفاته تسلُّم القواعد الشَّماليَّة مؤقَّتاً من أبنائه (عنان، دولة، ١٩٩٧: ١/٣٠٠)، وبخاصَّة بعد مسارعة فرتون بن موسى الثاني(ت.٢٦٠هـ/٨٧٤م) إلى إعلان الطَّاعة والاستعداد للانضمام إلى جيش الأمير، فقوَّده على رأس حملة جهادية، فحارب وحسُن بلاؤه، وتمكَّن من الإيقاع بالإسبان وقتل عددٍ كبيرٍ منهم (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣١٥).

وبدَت الأوضاعُ في الشَّمال وكأنَّها تسير لصالح الأمير محمَّد، فرأى أنَّ الفرصة قد حانت لتكثيف الحملات الجهاديَّة، ومن أجل التَّفرغ لهذا الأمر قام عام ٢٤٩هـ/٨٦٣م بتوثيق عرى الصَّداقة مع الملك الفرنجي شارل الأصلع (*Charles the Bald*)(٨٧٥-٨٧٧م/٢٦١-٢٦٣هـ)، وتبادلا السَّفارات بينهما (Cardoso, 2015, p: 86). تبع ذلك تجريد حملتين ضد أستورياس، فحرص على تجهيز الحملة الأولى بأفضل وأدقِّ المعدَّات بقيادة كل من ابنه عبدالرَّحمن(ت. ٢٥٩هـ/٨٧٣م)[٢٣]، وتوجَّه بالجيش إلى ألبة والقلاع، فتصدَّى له رودريجو كونت قشتالة (*Rodrigo Conde de Castilla*)(٨٦٠-٨٧٣م/٢٤٦-٢٥٩هـ) في شعاب الجبال الضيِّقة في منطقة ميرندا (*Miranda*) القريبة من جبال البرينيه (*Pirineos*)، وتمكَّن الأمير من تحقيق بعض الانتصارات (Perez de Urbel, 1945, I, p: 210).

وأما الحملة الثَّانية في العام المذكور، فكانت بقيادة الأمير المنذر، ووُجهتُها غاليسيا، وجاءت ردّاً على قيام القوَّات الإسبانيَّة بالتوغُّل في المناطق الواقعة تحت سلطة بني قسي

الموالين للدَّولة حينذاك، فتحرَّك المنذر على رأس الجيش حتى وصل إلى نهر دويرة، وهناك قام بتقسيمه إلى كتيبتين؛ الأولى في المقدّمة وكانت بقيادة محمَّد بن الكوثر، وأما الثَّانية فوقف على رأسها المنذر، واندفع الجيش نحو الأراضي الإسبانيَّة، وسيطر على عدد من القلاع حتى وصل إلى بمبلونة موقعاً الخسائر بالممتلكات (**Conde, 1900, p: 300**). ويبدو أنَّ عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م لم يشهد معارك متبادلة بين الطرفين الأندلسي والإسباني (**Perez del Urbel, 1945, I, p: 211**).

واستمراراً للدَّور الجهادي الذي اضطلع به الأمير المنذر في عهد أبيه؛ فقد تمكَّن من إحراز نصر مؤزَّر على الممالك الإسبانيَّة، خلال واحدة من أقوى الهجمات الإسلاميَّة في فجِّ المركويز، على أراضي ألبة والقلاع، قد يكون لفظ "المركويز" أو "المركوين" الذي ورد في المصادر الإسلاميَّة مُشتقاً من اسم الموضع القريب من نهر إيبرو، الذي يُقال له بالإسبانية *Hoz (de la Morcuera)* أو *(Foz de la Malcuera)*، وهو عبارة عن هضبة تخترقها سلسلة جبال أوبارينيس *(Obarenes)* وتشقُّها أودية عميقة، قريباً من بلدة ميراندا ديل إيبرو *(Miranda del Ebro)* الواقعة على بعد نحو ١٣٠كم جنوب غرب بنبلونة (**بروفنسال، ٢٠٠٠: ٢٥٣**).

وأفادت المصادر التّاريخيَّة أنَّ الأمير المنذر وقف على رأس هذه الحملة، ورافقه أخوه عبدالرَّحمن وقائداه الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة[٢٤] وعبد الملك بن العبَّاس القرشي، ففي جمادى الآخرة من عام ٢٥١هـ/يوليو ٨٦٥م؛ انطلقت القوات الإسلاميَّة نحو ألبة والقلاع، وألقت رحالها أولاً على نهر دويرة، ثم توافدت العساكر من كل أنحاء الأندلس، فتضخَّم الجيش الإسلامي وازداد قوَّة، وعمل القادة العسكريُّون على ترتيب الكتائب (**ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٩٨**)، وما أن انتهوا من ذلك ثم اندفع الجيش شمالاً عن طريق جبال أوكا *(Oca)* على الضفَّة اليُمنى لنهر إيبرو، وأعمل في الأراضي الإسبانيَّة تخريباً ونهباً، ثم دخل الأندلسيّون فجَّ بردنيش *(Pradanos)*، بالقرب من بردنوس دي بوريبا *(Pradanos de Bureba)* الحاليَّة في وسط شماليِّ البلاد (**بروفنسال، ٢٠٠٠: ٢٥٣**)، فتغلَّبوا على حُصونه الأربعة، وغنموا جميع ما فيها وخرَّبوها، ثم أخذوا يتنقَّلون من مكان إلى آخر، ناشرين الدَّمار في الممتلكات والمزارع، حتَّى لم يبقَ للكونت القشتالي رودريغو حصنٌ إلا وعمَّه الخراب، ثم قصدوا ضيعةً له تُعرف بالملَّاحة *(La Buroba)*، وكانت من أَجلِّ أعماله، وأعملوا فيها الدَّمار (**ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٩٨**).

وبعد ذلك بدأ المنذر يعدُّ العُدَّة من أجل العودة إلى الأراضي الأندلسيَّة، ويبدو أنَّ رودريغو كان ينتظر هذه الفرصة من أجل التَّصدِّي له وقطع طريق العودة عليه في فجِّ المركويز، حيث الجبال العالية والأودية السحيقة، وكان رودريغو قد أمضى فترة طويلة في

تحصين هذا الموضع ووضْع العوائق فيه (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣١٩)، "وسخَّر فيه أهلَ مملكته، وقطعه من جانب الهضبة، فارتفع جُرفه وانقطع مسلكُه"، لمنع الجيوش الأندلسيَّة من عبوره، وبدَوره كمن الجيشُ الإسباني للمسلمين حتَّى إذا ما دخلوا الفجَّ أطبق عليهم، وبعد قسط من الرَّاحة نزل الجيش الإسلامي على وادي إيبرو، استعداداً لملاقاة القوَّات الإسبانيَّة، وعمل الطرفان على تعبئة جيشيهما وتنظيمهما، وظهر في هذه المرحلة دورٌ كبيرٌ للأمير المنذر وللحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة في التَّخطيط والإدارة الحربيَّة، وبخاصَّة بعد أن أمر المنذر بنصب فسطاطه في موقع المعركة، وأمر الناس بضرب خيامهم لأخْذ قسط من الرَّاحة وتنظيم الصُّفوف (ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٩٩). وفي الثَّاني عشر من رجب عام ٢٥١هـ/الثَّامن من أغسطس ٨٦٥م قرَّر المنذر السَّير بقوَّاته عبر شاطئ إيبرو لأنَّه كان من الأفضل له مواجهة القوَّات الإسبانيَّة فوق ساحة سهليَّة مكشوفة لا بين شعاب الجبال، إلا أنَّه لم يجد سبيلاً سوى عبور فجِّ المركويز، ولمَّا صار فيه اشتبك الطَّرفان في قتال عنيف، وجهاً لوجه، وصدق المسلمون اللِّقاء، وتمكَّنوا من تطهير الفجِّ من الإسبان بعد قتْل أعداد كبيرة منهم، ولم يجد الفارُّون من مهرَب سوى تسلُّق الهضاب المحاذية للفجِّ واللُّجوء إلى المناطق الوعرة والغياض، واضطرَّ آخرون إلى خوض نهر إيبرو من أمكنة عميقة، فغرق فيه عددٌ كبير، واستمرَّ المسلمون في ملاحقتهم قتلاً وأسراً (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣١٩-٣٢٠؛ ابن الأثير، ١٩٨٧: ٦/١٧٩).

وبعد هذا النَّصر قام الأندلسيّون بردْم الخندق، وسُوِّي حتى سُهِّل، فأصبح الطَّريق سالكاً أمام المنذر وقوَّاته، وأمَّا عددُ القتلى من المسيحيِّين فبلغ عشرون ألفاً وأربعمائة واثنان وتسعون (ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٩٩)، وقيل ثلاثون الفاً، صعَد المؤذِّنون على رؤوسهم فأذَّنوا لصلاة العصر، قبل عودتهم ظافرين إلى قرطبة (مجهول، ٢٠٠٧: ١٩٣)، ووصف المؤرِّخون نتائج هذه الغزوة أنَّها فتحٌ عظيم (ابن الأثير، ١٩٨٧: ٦/١٧٩؛ النويري، ١٩٨٤: ٢٣/٢٢٩؛ ابن خلدون، ٢٠٠٠: ٤/١٦٧؛ المقري، ١٩٨٨: ١/٣٥١)، حيث أدَّت إلى دفع الحدود الإسلاميَّة باتِّجاه الشَّمال. ولم تمنع موجات القحط والمجاعات التي اجتاحت البلاد من قيام الأمير محمَّد بالاستمرار في الهجوم؛ فأعاد الكرَّة عليهم في العام التالي (٢٥٢هـ/٨٦٦م)، حيث سيَّر جيشاً بقيادة ابنه عبدالرَّحمن إلى ألبة والقلاع ومدينة أمايا (*Amaya*)، الواقعة إلى الشمال الغربي من برغش، بالقرب من الضفَّة الشرقية لنهر (*Pisuerga*) أحد روافد نهر دويرة، وعُدَّ حصنها من أمنع الحصون منذ العهد الروماني والقوطي، فقتل عدداً من أهلها وأفسد زروعها، ثم قفل راجعاً بسلام، ولم تُسفر هذه الغارة عن نتائج حاسمة لأيٍّ من الطَّرفين (ابن الأثير، ١٩٨٧: ٦/١٨٩، ١٩٦؛ ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٩٩-١٠٠)؛ (Cotarelo, 1933, p: 103).

وبعد وفاة أردونيو الأوّل اعتلى عرش أستورياس الملك الفونسو الثّالث عام ٢٥٢هـ/٨٦٦م، وشهدت الفترة الأولى من حكمه مؤامرة داخليّة كادت تطيح بعرشه، وعندما تغلّب عليها رأى أن يُشغل سادةَ مملكته بالصِّراع ضدَّ الأندلسيّين عبْر الحدود الجنوبيَّة(بروفنسال، ٢٠٠٠: ٢٥٤)، فشكّلت فترتُه بدايةً خطيرة لعمليّات التوسُّع الإقليمي على حساب الأراضي الأندلسيَّة، وممَّا ساعد على إنجاح جهوده؛ حالة عدم الاستقرار لدى الجانب الإسلامي النّاتجة عن الثّورات الدّاخلية، هذا بالإضافة إلى الحوافز الصليبيَّة لدى الإسبان، وإذا كان أردونيو الأوّل وغيرُه من ملوك أستورياس قد تمكّنوا من قبلُ من الوصول إلى نهر دويرة، فإنَّ الفونسو الثّالث هو الوحيد الذي تمكّن هناك من السَّيطرة على مناطق جديدة، والاحتفاظ بها، وضمِّها إلى ممتلكاته في الشّمال (Isaac, 2013, p: 18-19). وما أن انتهى الملك الإسباني المذكور من توطيد أركان حكمه حتى استهلَّ عهده بالسَّير على رأس حملة ضدَّ الأراضي الإسلاميَّة في صيف ٢٥٣هـ/٨٦٧م، إلا أنَّ المصادر التّاريخيَّة لم تفصح عن تفاصيلها، ثم انشغل بتعمير مدينة ليون[٢٥] (*Leon*) وسبلانثيا (*Sublancia*)، الواقعة بالقرب من نهر إسلا (*Esla*)، أحد روافد دويرة على بعد فرسخ ونصف من ليون (Perez de Urbel, 1945, I, p: 218).

وعلى الجانب الآخر؛ يبدو أنَّ الأمير محمَّد كان يسير وفق استراتيجيَّة تقوم على ضرورة عدم إتاحة الفرصة للإسبان لالتقاط أنفاسهم وتجميع قُواهم (حتاملة، ٢٠٠٠: ٢٨٧)، فهاجمت جيوشُه في عام ٢٥٣هـ/٨٦٧م منطقة غاليسيا، ثم تمكّنت من السَّيطرة على حصن جرنيق(*Guernica*) في مملكة بمبلونة (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٢٠)، وقيل أنَّ هذا اللَّفظ تحريف لاسم جرنيو (*Guerenu*)، ويقع الحصن عند جبال كنتبرية (*Cantabria*)، على بعد ٧٠كم شرقي مدينة بمبلونة، على حوافِّ نهر إيبرو، عند مدخل منطقة ألبة، وهي منطقة جبليَّة وعرة المسالك(بروفنسال، ٢٠٠٠: ٢٠٣).

وفي العام التّالي تصدَّى الأمير المنذر لقيادة العمليَّات العسكريَّة في الشَّمال، فجُمعَت القوّات بالقرب من طليطلة، ثمَّ انطلقت إلى أراضي مملكة أستورياس ووصلت إلى أسترقة[٢٦] (*Astroga*) سالكة الطَّريق الرّوماني القديم[٢٧]، وهناك انقسمت إلى قسمين: القسم الرئيسي بقيادة الأمير المنذر، وزحف باتجاه ليون عن طريق الطَّريق المؤدّي إلى سرقسطة، وأما القسم الآخر بقيادة أخيه الحكم، فتوجَّه إلى بييرثو (*Bierzo*) عن طريق لوغو (*Lugo*) الواقعة في أقصى شمال غرب البلاد بالقرب من مدينة شنت ياقب، ولما علم الفونسو بالأمر جمع قواتَه واندفع مهاجماً قوّات المنذر، وتمكّن من تشتيتها وأسر أربعمائة من أفرادها، ومن ثم أسرع من ليون

إلى بييرثو القريبة منها، حيث كان المسلمون بقيادة الحكم يعيثون تخريباً وقتلاً، فتمكَّن من قتل ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وسبعين من المسلمين، وعاد منتصراً، ولا تُظهر هذه الرِّواية في الكتابات العربيَّة حتى لا يظهر المنذر والحكم بهذه الصورة المهزومة -*Cotarelo, 1933, p: 127-128)*، ومن الجدير بالذِّكر أنَّ بعض المصادر الأوروبيَّة الأخرى أتت على هذه الموقعة، ولكن بصورة مقتضبة *(Quadrado, 1885, p: 132; Lafuente, 1850, III, p: 323)* ، وبعد سلسلة من الهجمات النَّاجحة في بداية عهد الملك الفونسو؛ تمكَّن الإسبانُ من السَّيطرة على عددٍ من الحصون المنيعة في شمال البرتغال الحاليَّة، فاستولى الكونت بيمارانو بيريث *(Vímara Pérez)* (ت. ٨٧٣م/٢٦٠هـ) على بورتو *(Porto)* الواقعة في فم نهر دويرة عام ٢٥٤هـ/٨٦٨م (بروفنسال، ٢٠٠٠: ٢٥٤)، وبدأ الملك بتعمير المنطقة الواقعة بين دويرة ونهر مينو *(Mino)*، وبنى مجموعة من القلاع على الحدود، وبذلك تم إنشاء أرض القلاع جنوب غرب مملكة أستورياس **(O'Callaghan, 1975, p: 112-113)**.

وما كاد الأمير محمَّد ينتهي من إخماد ثورة عمروس (ت. ٢٦٣هـ/٨٧٧م)[٢٨]؛ حتَّى أطلَّت رؤوس الشرِّ والفتنة في المناطق الشَّماليَّة الشرقيَّة من جديد، وذلك من جانب لُبّ بن موسى الثاني، الذي تحالف عام ٢٥٧هـ/٨٧١م مع ملك بمبلونة، وتمكَّن في العام التَّالي من التَّغلُّب على معظم مدن الثَّغر الأعلى، وأخرج عُمَّال الأمير محمَّد منها، وقدَّم على مدينة تطيلة أخاه فرتون، ثم تقدَّم لب وأخوه إسماعيل إلى مدينة سرقسطة في ربيع الأول ٢٥٨هـ/يناير ٨٧٢م فدخلاها، وسيطر إسماعيل المذكور على حصن منتشون، الواقع على بعد عشرة فراسخ من لاردة، وأما مطرِّف بن موسى الثَّاني فسيطر على وشقة وأسر **عاملها (الدلائي، (د. ت): ٣١-٣٣)**، ورداً على ذلك أرسل الأمير جيشاً بقيادة ابنه المنذر، فوصل إلى سرقسطة، وحاصرها خمسة وعشرين يوماً، ولما طال الحصار تحرَّك الجيش نحو الأراضي المسيحيَّة في ألبة وبلاد بمبلونة ناشراً فيها الخراب والقتل والأسر، ثم عاد ليحتلَّ بالقرب من سرقسطة، وبقي في المناطق الشَّماليَّة الشَّرقيَّة**(Conde, 1900, I, p 310-311)**. واستمرَّ لب وإسماعيل ابنا موسى الثَّاني بالثَّورة داخل سرقسطة **(الدلائي، (د. ت): ٣٣)**، وأما وشقة فتمكَّن عمروس بن عمرو من انتزاعها من مطرِّف بن موسى الثَّاني، وظل الأخير حبيساً فيها[٢٩]، فسار الأمير محمَّد عام ٢٥٩هـ/٨٧٣م على رأس جيشه لقتال عمروس، وانتهى الأمر إلى إبرام صلح بين الطرفين، وولّاهُ الأميرُ وشقة وعملها، وتمكَّن من السَّيطرة على تطيلة، وتسلَّم من عمروس مطرِّفاً وأولاده، ثم جال الأمير في الثغر الأعلى مضيِّقاً على بني قسي، وبعد عودته إلى قرطبة أمر بقتل مطرِّف بن موسى الثاني

وبنيه محمَّد وموسى ولب في الثَّامن من ذي القعدة ٢٥٩هـ/الرَّابع من سبتمبر ٨٧٣م (ابن حيَّان. ١٩٧٣: ٣٣١-٣٣٣).

وخلال العام المذكور توغَّل الأندلسيّون بقيادة الأمير المنذر في أراضي غاليسيا، ثم التقوا مع الإسبان في معركة دمويَّة على ضفاف نهر سيا (*Cea*) الذي يصبُّ في نهر دويرة، في مكان ليس ببعيد عن بلدة (*Sahagun*)، ويبدو أن الطَّرفان تكبَّدا خسائر فادحة في الأرواح، فبدت المعركة وكأنَّها ملحمة حقيقية، فإذا كان الأندلسيّون قد خسروا كثيراً من فرسان طليطلة وقرطبة وماردة وإشبيلية ولوَّنت دماؤهم مياه النهر؛ فإنَّ الإسبان قد تعرَّضوا لخسارة أكبر لدرجة أنَّهم مكثوا أحد عشر يوماً في دفن قتلاهم، ومن أجل تعزيز الوجود الإسباني في حوض نهر دويرة وإحكام سيطرته على نواحيه؛ فقد سيَّر الفونسو الثَّالث جيشاً تمكَّن بواسطته من الاستحواذ على أتينثا (*Atienza*) شمال وادي الحجارة، وأخَذ له مواقع في لاريوخا شمال بلاد الأندلس على الحدود بين أملاك بني قسي ومملكة بمبلونة، وطرَد القرطبيِّين من المنطقة، ثم انتقل إلى جنوب نهر دويرة وهاجم مدينة قُلُمرية، وأمَّن الدفاع عن المناطق الواقعة تحت سيطرته (**Quadrado, 1885, p. 131-133**).

وفي هذه المرحلة كانت جميع مدن الثَّغر الأعلى بيد بني قسي، خلا مدينة وشقة التي كانت تحت سلطة الأمير محمَّد بفضل بني عمروس الذي كانوا يسيطرون عليها، وأما قلعة أيُّوب (*Calatayud*) ودَروقة (*Daroca*)(٣٠) المتجاورتين فكانتا تحت حكم التَّجيبيِّين الموالين لقرطبة، وكانوا يشكِّلون جداراً حامياً بين الدَّولة والمتمرِّدين في الشَّمال، وفي عام ٢٦٠هـ/٨٧٤م ارتكب محمَّد بن لب بن موسى الثَّاني (ت. ٢٩٤هـ/٨٩٨م) حاكم المدينة المتمرِّد مجزرة كبيرة بحقِّ عرب سرقسطة، حيث أخرجهم إلى مرج بلدة بُقيرة (*Viguera*) في منطقة لاريوخا على الحدود مع مملكة بمبلونة، فقتل أعداداً كبيرة منهم، فصار المرج يعرف باسم مرج العرب(الدلائي. (د. ت): ٣١)، وعندما سمع الأمير بذلك هاله الأمر، فسيَّر في العام نفسه ولده المنذر مع جيش كبير بقيادة الوزير هاشم بن عبدالعزيز(ت. ٢٧٣هـ/٨٨٦م)(٣١)، فزحف إلى سرقسطة وبها محمَّدٌ بن لب، فحاربها وحطَّم زروعها وقطع أشجارها وثمار بساتينها دون أن يتمكَّن من فتحها، ونقل كثيراً من أطعِمَتها إلى مدينة وشقة الموالية للدَّولة، ثم توجَّه إلى بمبلونة، فعاث في نواحيها وأتلف معايش أهلها، وقفل سالماً(ابن حيَّان. ١٩٧٣: ٣٤١: الدلائي. (د. ت): ٣٥: ابن عذاري. ١٩٨٣: ٢/١٠٢)، ويبدو أنَّ هذه الحملة لم تحقِّق النَّتائج المرجوَّة.

ولم تتوقَّف الدَّولة عن تجريد حملاتها ضدَّ متمرِّدي المناطق الشَّماليَّة الشَّرقيَّة، ففي عام ٢٦٤هـ/٨٧٨م قرَّر الأمير محمَّد تجريد حملة بهدف بسط سيطرة الدَّولة وسيادتها، فسار ابنُه الأمير المنذر إلى الثَّغر الأعلى على رأس جيش بقيادة الوزير محمَّد بن جهور (ت.٢٧٣هـ/٨٨٦م)[٣٢] (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٨٥)، وعاث في أراضي سرقسطة وأحوازها، ثم تقدَّم إلى تطيله التي كان بنو موسى قد استولوا عليها، فانتسفها وجعل جنودُه يجوسون خلالها، ولكنَّه لم يستطع الاستيلاء عليهما، وزحف إلى بمبلونة فخرَّب أراضيها، وقتل كثيراً من أهلها، ثم سار جمعٌ من العرب إلى الأراضي الإسبانيَّة في غاليسيا، فكان بينهم وقعة عظيمة قُتل فيها من الطَّائفتين الكثير (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٨٥؛ ابن الأثير، ١٩٨٧: ٢٧٩/٦؛ ابن عذاري، ١٩٨٣: ١٠٣/٢). وفي صيف عام ٢٦٧هـ/٨٨١م عبَّأ الفونسو الثالث قوَّاته وانطلق عابراً نهر دويرة حتَّى وصل بجيشه إلى أحواز ماردة، ثم عاد محمَّلاً بالأسلاب والغنائم والأسرى (Cotarelo, 1933, p: 151-153)، وهذه هي أوَّل مرَّة يتوغَّل فيها ملك إسباني في الأراضي الإسلاميَّة بهذا العمق، وبعد عودته؛ احتفل في عاصمته أوفييدو[٣٣] بهذا النَّصر، ونصب التَّماثيل في كل مكان أسوة بالفاتحين الكبار، ونظَم الشُّعراءُ القصائد التَّمجيديَّة به، وأخذت قصائدهم الطَّابع الدِّيني (Cotarelo, 1933, p: 271-273)، الأمر الذي جعله جديراً باللَّقب الذي أطلقه عليه المؤرِّخون الإسبان، وهو "الفونسو العظيم"(بروفنسال، ٢٠٠٠: ٢٥٤).

وبقيت الحرب سجالاً بين الطَّرفين الأندلسي والإسباني؛ وتكرَّرت الحملات الأندلسيَّة ضدَّ الممالك الإسبانيَّة في الشَّمال، ففي العام التَّالي ٢٦٨هـ/٨٨٢م جرَّد الأمير حملة بقيادة كل من ابنه المنذر والقائد هاشم بن عبدالعزيز (الدلائي، (د. ت): ٣٣؛ ابن عذاري،٢:١٠٥/١٩٨٣)، وهدفت إلى سحق الثَّورات الشَّماليَّة ومهاجمة المواقع الإسبانيَّة، فنزل الجيش القرطبي غربي مدينة سرقسطة (الدلائي، (د. ت): ٣٣)، ثمَّ زحف إليها، فجاس خلال أحوازها وخرّب زروعها، وحاول اقتحامها ولكنَّه لم ينجح في ذلك، ثمَّ تحوَّل إلى الجنوب بغية احتلال المراكز القويَّة، فخرَّبها واستولى عليها، وافتتح حصن روطة[٣٤] (*Rueda*) المنيع، وفيه تمكَّن من أسر عبد الواحد الرُّوطي أحد الزُّعماء المتمرِّدين على الدَّولة، ثمَّ تقدَّم الجيش القرطبي وسيطر على الحصون التَّابعة لمحمَّد بن لب بن موسى، وقيل أنَّ الأخيرَ مدَّ يد العون للأمير الأموي بسبب غيرته الشَّديدة من عمِّيه وسُخطه عليهما لاستئثارهما بالسُّلطة، فعمل على إمداد جيش المنذر بتعزيزات عسكريَّة، ممَّا مكَّن الأخير من مهاجمة الحصون القريبة من مدينة لاردة، والاستيلاء على المدينة، وحينها

شعر إسماعيل بن موسى في سرقسطة بالعُزلة، وبات على قناعة أنَّه لن يتمكَّن من مواجهة الجيوش القرطبيَّة التي عسكرت إلى الغرب من المدينة؛ فجنح للسِّلم وقدَّم رهائنه (ابن الأثير، ١٩٨٧: ٣١٢/٦).

ومن أجل التَّفاوض وإتمام شروط الصُّلح بين الطَّرفين؛ خرج رسلُ كِليهما يوم الأربعاء ٨ ذي القعدة ٢٦٨هـ/٢٩ مايو ٨٨٢م، ومن رُسلِ المنذر كان ريدانُ الفتى والفقيه عبيد الله بن يحيى (ت. ٢٩٧هـ/٩١٠م)[٣٥]، ومعهما عددٌ آخر من الفقهاء لتوكيد شروط الصُّلح، ولم تذكر المصادر التّاريخيَّة رسل إسماعيل، ويبدو أنَّه تولَّى التفاوض بنفسه، ولكنَّ المفاوضات لم تنجح، إذ لم يوافق إسماعيل على ما طرحته قرطبة، وحينها قرَّر المنذر استئناف الضَّغط على سرقسطة، فتقدَّم الجند نحوها في اليوم التَّالي، ونصبوا معسكرهم قرب المدينة، وفرضوا حصاراً عليها، وشرعوا في قطف الثِّمار والتَّشديد على سكَّانها من النَّاحية الاقتصاديَّة، ثم اشتبك الطَّرفان في قتال عنيف، وخلال ذلك أُحرقت الدُّور وهدِّمت الأحياء السكنيَّة وكثُر القتل، "ولم يكن في الثَّغر أشدُّ ضرراً عليهم من هذه الصَّائفة ولا أنكى لهم" (الدلائي، د. ت: ٣٣-٣٤).

وعلى الرَّغم من النَّصر المؤزَّر الذي أحرزه الجيش القرطبي؛ فإنَّ المصادر لم تأتِ على ذكر مصير سرقسطة، إن كان المنذرُ قد فرض سيطرته عليها بالكامل، أو ولّى عليها أحداً من طرفه، ويبدو أنَّ ذلك لم يتمَّ لأسباب مجهولة، وتبدو المعلومات التّاريخيَّة في هذه المرحلة على نحوٍ يشوبُه نوع من التَّناقُض؛ ففي الوقت الذي تُظهر فيه المعطيات السَّابقة أنَّ المفاوضات مع إسماعيل بن موسى قد تعثَّرت، إلا أنَّ ابن الأثير (١٩٨٧: ٣٣٩/٦) يعود ليذكُر أنَّ صلحاً قد تمَّ بالفعل بين الطَّرفين، وأنَّ إسماعيل قد اطمأنَّ لهذا الصُّلح فأخذ بإعادة بناء مدينة لاردة وإعمارها عام ٢٧٠هـ/٨٨٤م، وأضاف أنَّه لما سمع كونت برشلونة الفرنجي ويفريدو المشعَّر (*Wifredo el Velloso*) (٨٧٨-٨٩٧م/٢٦٤-٢٨٤هـ) بذلك؛ جمع جيشاً وسار يريد منعه، فقاومه إسماعيل بشراسة، وهُزم الفرنجة وقُتل أكثرُهم، وبقي أكثرُ القتلى في أرض المعركة وقتاً طويلاً، ويبدو أنَّ هذا أوَّلُ توغُّل برشلوني غرباً.

واستمراراً لفعاليَّات الحملة نفسها توجَّهت الجيوش الإسلاميَّة لمهاجمة ألبة والقلاع وقشتالة وغاليسيا، ولم تتحدَّث المصادر الإسلاميَّة أو المسيحيَّة حول تفاصيل ذلك، واكتفى بعضها بالقول أنَّ الجيش القرطبي تمكّـَن من فتح العديد من الحصون(ابن الأثير، ١٩٨٧: ٣١٢/٦؛ ابن خلدون، ٢٠٠٠: ١٦٩/٤)، وترك حاميات في بعضها، وجعل البعض الآخر خالياً؛ خوفاً من سقوطها مجدداً بيد العدو، نظراً لضعف إمكانيَّاتها الدِّفاعيَّة (الصوفي، ١٩٨٠: ٢٧٣)، وفي ذلك الوقت كان الفونسو في مدينة ليون يتأهَّب للقتال؛ فإنَّ مفاوضاتٍ سُرعان ما جرت بين الطَّرفين وانتهت

بهدنة، ومن ثم قفل المنذر عائداً إلى قرطبة على رأس جيشه (عنان، دولة، ١٩٩٧: ١/٣٠٣)، ويقال أنَّ العلاقات بين المنذر وهاشم بن عبد العزيز قد ساءت خلال هذه الحملة (٢٦٨هـ/٨٨٢م) لأسباب غير معروفة، ولربَّما عادت إلى قيام هاشم بإساءة الأدب معه "حتى أحقده وأتلف محبَّته"(ابن سعيد، (د. ت): ١/٥٣)، وقد تكون بسبب خلافات على صلاحيَّات كلٍّ منهما في قيادة الجيش، أو لأسبابٍ تتعلَّق بالقرارات الميدانيَّة.

وتمشِّياً مع الدَّور الجهادي الذي اضطلع به الأمير المنذر؛ فقد تمكَّن مع والده الأمير محمَّد من إحراز النَّصر على جيش مملكة بمبلونة في موقعة أيبار (*Aibar*) (*Aybar*) عام ٢٦٩هـ/٨٨٢م، ففي العام المذكور طلب محمَّد بن لب، الذي كان متحالفاً مع قرطبة، المساعدةَ من الأمير محمَّد من أجل مواجهة الإسبان، فخرج الأخيرُ في صيف عام ٢٦٩هـ/٨٨٢م على رأس جيش كبير، ووضع في مقدمّته ابنه المنذر، أما الأمير محمَّد فكان القائد الأعلى، وسار بهذه التَّشكيلة نحو أراضي مملكة بمبلونة، ولما رأى الإسبانُ ذلك فزعوا وتقهقروا مسرعين إلى حصونهم، مما سهَّل على المسلمين تتبُّع أثرهم وسط الجبال(**Conde, 1900, p: 318**)، فالتقى الجمعان في وادي أيبار قرب قرية لارومبي (*Larumbe*) (*Lumbier*)، على بعد أربعة فراسخ من بمبلونة، وتمكَّن المسلمون من هزيمتهم وقتل ملكهم غرسيه بن ونقة، وغطَّت أشلاء قتلاهم أرض المعركة، وبعد هذا النَّصر عاد الأمير إلى قرطبة، وأقيمت الاحتفالات، ووُزِّعت الأموال على الفرسان، أمَّا المنذر فبقي على الحدود إلى فصل الشِّتاء ثم عاد بعد ذلك إلى قرطبة بغنائم وفيرة (**Lafuente, 1850, III, p: 329; Conde, 1900, p. 319**). وهناك جدلٌ حول ما إذا كان ملك بمبلونة هو الذي قُتل في هذه المعركة، ولكن ما نرجِّحه أن يكون غرسيه المذكور قد قتل على يد محمَّد بن لب وابن عمه اسماعيل بني قسي(**Cotarelo, 1933, p: 280-281**)، ويبدو أن الذي قتل هو (*Garcia Jimenez of Pamplona*) أحد كبار الأمراء النَّافاريين.

وبالعودة للأوضاع على الجبهة الشَّماليَّة الشَّرقيَّة، فبعد عشرين عامٍ من وفاة أبيهم، حاز أولاد موسى الثاني زعماء سرقسطة وتطيلة على ثقة السكَّان، وأصبحوا مستقلِّين بأمرهم، وعقدوا تحالفات مع الفونسو الثَّالث، حمايةً لحدودهم ضد الصَّوائف القرطبيَّة، وبلغت الصَّداقة مداها أن طلب الملك الإسباني منهم عام ٢٦٨هـ/٨٨٢م تعليم ابنه الصغير أردونيو ذي الإثني عشر عاماً وتربيته (**Cotarelo, 1933, p: 275, 277**)، وتلقَّى إسماعيلُ بن موسى نبأً تحالف ابن أخيه محمَّد بن لب مع قرطبة ببالغ الغضب، ففي عام ٢٧٠هـ/٨٨٤م خرج إسماعيل لقتاله (الدلائي، (د. ت): ٣٤)، على رأس جيش تكوَّن من سبعة آلاف رجل، وضمَّ أعداداً من

القوّات المسيحيّة، ولمّا توسَّط الطَّرفان قَلَهُرَّة *(Calahorra)* التَّابعة لبني قسي في إقليم لاريوخا على الحدود مع مملكة بمبلونة؛ نشب القتال بينهما على ضفاف نهر إيبرو، وانتهى بانتصار محمَّد بن لب وأسْره لعمِّه إسماعيل وبني عمومته إسماعيل ولب ابنيّ فرتون بن موسى، فحبسهم في قلعة بُقيرة وجرَّدهم من أملاكهم، ثم تحرَّك وسيطر على سرقسطة حتَّى يُعيد سلطة الأمير محمَّد عليها، ولكنَّ الأخير أخطأ عندما طلب من ابن لب تسليمه الأسرى من بني قسي، فرفض هذا الطلب واستقلَّ بالثَّغر الأعلى، وأفرج عن أقاربه، وأعاد المدينة إلى إسماعيل بن لب(**Cotarelo, 1933, pp: 282-283**)، فوجد محمَّدٌ بن لب نفسه بين عدوَّين؛ قرطبة وأوفييدو، ولهذا أخذ يتقرَّب من الفونسو الثَّالث (**بروفنسال، ٢٠٠٠: ٢٥٧**).

وبعد هذه التَّطوُرات جرَّدت قرطبة في ذي القعدة ٢٦٨هـ/يونيو ٨٨٢م جيشاً بقيادة المنذر بن محمَّد وهاشم بن عبدالعزيز للسَّيطرة على سرقُسطة ***Perez de Urbel, 1945, I, p: 255; Cotarelo, 1933, p: 277)***، وبلغ عددُه سبعون ألفاً (**Puyol, 1926, p: 23**)، فوصل إلى المدينة وحاصرها أكثر من عشرين يوماً دون جدوى، بسبب استبسال حاميتها وجنود الفونسو الثَّالث المدافعين عنها، ثم قطع جيش قرطبة نهر إيبرو وحاصر تطيلة التي كان يحكمها فرتون بن موسى الثَّاني، ولكنَّه لم يتمكَّن من اقتحامها (**Cotarelo, 1933, p: 279**)، فتوجَّه نحو منطقة لاريوخا *(La Rioja)* لمهاجمة قلعتيّ سيلوريجو *(Cellorigo)* وبانكوربو *(Pancorbo)*، تقع الأولى في نقطة عالية على الجهة الجنوبيَّة لجبال البيرينيه، وبسبب موقعها الاستراتيجي كانت تُعرف بقلب لاريوخا *(Pulpito de la Rioja)*، وهي تسيطر على الوادي والمناطق الأقل انخفاضاً، وأما بانكوربو فتقع في جبال أوكا *(Oca)* التابعة للبيرينيه، ومن صفاتها ارتفاعاتها الشَّاهقة، وحدَّة صخورها المعرَّضة للانهيار الدّائم، ومن هاتين القلعتين يمكن الإشراف على سهول وقرى لاريوخا، وعلى *(Boreba)* من ناحية الغرب، وعُدَّت هذه المواقع الاستراتيجيَّة أيضاً مهمَّةً لأمن ألبه والقلاع، انظر: (**Cotarelo, 1933, p: 278-279**).

واستبسل كونت ألبة بيلا خيمينيس *(Vela Jimenez)*(٨٧٠-٨٨٣م/٢٥٦-٢٦٩هـ) في الدِّفاع عن قلعة سيلوريجو، ولم يستطع المهاجمون اقتحامها، وتكبَّد الطرفان خسائر كبيرة، ولما فشلوا هاجموا بانكوربو، فتصدَّى لهم كونت قشتالة دييغو رودريغيز *(Diego Rodriguez Porcelos)* (٨٧٣-٨٨٥م/٢٥٩-٢٧٢هـ) على مدار ثلاثة أيام، وأمَّا قلعة كاستروخيريث *(Castrogeriz)* الواقعة على نهر أودرا *(Odra)*؛ فاضطرَّت حاميتُها الإسبانيَّة إلى مغادرتها بسبب ضعف إمكانيَّاتها الدِّفاعيَّة (**Cotarelo, 1933, p: 279**)، وتعرَّضت مدينة بُرغُش[٣٦] *(Burgos)*

للهجوم، فهجرها سكَّانها للسَّبب ذاته (**Perez de Urbel, 1945, I, p: 256**)، ولم تتحدَّث المصادر إنْ كان المهاجمون قد سيطروا على كاستروخيريث وبرغش، وعلى ما يبدو فإنَّ ذلك لم يحدُث.

وكان من المتوقَّع أن تصل نجدةٌ من إسماعيل بن موسى الثّاني لمساعدة الإسبان في وجه جيش المنذر، وبالفعل وصلت أخبارٌ تفيد أنَّ قوَّاته قد غادرت سرقسطة وأنَّها على بعد خمسة عشر ميلاً من بانكوربو، ممَّا رفع من معنويَّاتهم، وعندما وصلت؛ انسحب المنذر إلى قرطبة (**Cotarelo, 1933, pp: 279-280**)، وقيل أنَّ المنذر عندما رأى جاهزيَّة الفونسو وقوَّة جيشه طلب الصُّلح، وفي طريقه قام بإحراق دير ساهاجون (*Sahagun*) (**Perez de Urbel, 1945, I, p: 256**)، الذي كان المستعربون قد بنوه إلى جانب غيره من الأديرة في مناطق النُّفوذ الإسبانيَّة بعد هجرتهم من الأراضي الأندلسيَّة (**كحيلة، ١٩٩٣: ٢٤٠**).

أما هاشم بن عبدالعزيز فظلَّ يجوس خلال أراضي ليون، وكان بين الطَّرفين الأندلسي والإسباني نهرُ إسلا، على بعد خمسة عشر ميلاً من ليون، وهناك قام هاشم بإحراق العديد من المواقع من (*la Ribera Alcoba de*) وحتى ضفاف نهر أوربيغو (*Orbigo*)، فأمر الفونسو بدفع فيلقين من الجنود على الضفَّة اليسرى للنَّهر، ويبدو أنَّ مفاوضات قد جرت بين الطَّرفين، وطلب هاشم من الفونسو إطلاق سراح ابنه أبي القاسم، فأجابه إلى طلبه، ثم انسحب إلى قرطبة في صفر ٢٦٩هـ/سبتمبر ٨٨٢م (**Quadrado, 1885, p: 135**). وأشار ديلغادو (*Delgado*) أنَّ هذا الصِّراع الدَّموي بين الطَّرفين قد خلَّف الكثير من الخسائر البشريَّة، حيث غصَّت ضفاف نهر أوربيغو وسهول المنطقة بجثث القتلى والعظام، وبخاصَّة من الجانب الأندلسي، وتوافدت أسرابُ الطُّيور الجارحة لتنهش الجثث التي لم تُدفن، وأردف قائلاً أنَّ ذلك قد ترك جروحاً عميقة لدى المسلمين، "وكان هذا من نعمة عام ٨٨٢م" (**Delgado, 1860, p: 145**).

ويبدو أنَّ الحملة التي جرَّدتها قرطبة في العام التَّالي أي صيف ٢٧٠هـ/٨٨٣م هدفت بالدَّرجة الأولى إلى إبرام صلح مع ألفونسو الثَّالث، في وقت كان فيه الأخيرُ يعدُّ العدَّة في عاصمته أوفييدو للمواجهة القادمة، فاختار لهذا الغرض قوَّات مدرَّبة، ثم تحرَّك على رأس قوَّاته ليلاً وحلَّ بالمنحدرات الوعرة القريبة من نهر سيا، أحد روافد نهر إسلا في شمال غرب البلاد، وفي الوقت ذاته كان هاشم بن عبد العزيز قد وصل فجراً إلى سهول سبلانثيا فلم يجد فيها سوى بيوتاً مهجورة، وقطع النَّهر المذكور، وهناك علم بالتَّحضيرات العسكريَّة الإسبانيَّة، فغيَّر خطَّ سيْره وتراجع نحو الجنوب سالكاً طريق كوينثا (*Coyanza*) نحو المناطق الجنوبيَّة(**Cotarelo, 1933, p: 285**)، وخلال ذلك قام بتدمير دير القدّيسين (*Facundo y*

(*Primitivo*) (**Quadrado, 1885, p: 135**)، ثم بدأ بمراسلة الفونسو من أجل إحلال السَّلام بين الطَّرفين بناء على تعليمات المنذر المُرافق للحملة والتي تلقَّاها من الأمير محمَّد، وتأتي هذه الرَّغبة بسبب فشل القرطبيِّين في تحقيق انتصارات حقيقيَّة سوى النَّهب وحرق الحقول والقلاع وأسر السكان، فقبل الفونسو هذا العرض بفرح كبير بسبب الدَّمار الكبير الذي حلَّ بمملكته (**Cotarelo, 1933, p: 287**).

ومن ناحية أخرى فإنَّ أجواء الحروب والقتال لم تمكِّن ألفونسو من المحافظة على أمن مملكته وتطويرها، خاصة أنَّ التَّاج الأوستيري كان يضع على رأس أولوياته إعمار البلاد لمنحه المزيد من القوَّة بهدف إحراز المزيد من التقدُّم في سياسة إعادة الاسترداد، فقرَّر إرسال سفارة إلى قرطبة برئاسة القس دولثديو (*Bishop Dulcidio of Salamanca*)، وهو مستعرب طليطيلي يتقن العربيَّة، يرافقه في مهمَّته هذه أردونيو بن الفونسو الثَّالث، وغادر أوفييدو إلى قرطبة في ربيع الأوَّل ٢٧٠هـ/سبتمبر٨٨٣م، حاملاً معه الرَّسائل والهدايا، وحلَّ ضيفاً على الأمير محمَّد، واتَّفق الطَّرفان على عقد هدنة لستِّ سنوات، ومن حقِّ جميع الأطراف خلالها تقوية القلاع والحصون الحدوديَّة، وتمَّ الاتِّفاق على تسليم رفات القدِّيس أولوخيو (*Eulogio*) والقدِّيسة ليوكريثيا[٣٧] (*Leocricia*) اللَّذين كانا قد أُعدما في قرطبة، ونجح السفير في مهمَّته وعاد إلى أوفييدو في ٧ رجب ٢٧٠هـ/٩ يناير ٨٨٤م حاملاً معه رفات القدِّيسين، وعندما علم الفونسو بتفاصيل الاتِّفاق قام بتنظيم الاحتفالات بهذه المناسبة (**Cotarelo, 1933, p: 288-290**).

دور الأمير المنذر في مواجهة تمرُّدات المولَّدين في طليطلة: لم تكَد تمرُّ سوى بضعة أيَّام على اعتلاء الأمير محمَّد بن عبدالرَّحمن العرش؛ حتَّى ثار مولَّدو مدينة طليطلة، وتمكَّنوا في الرَّابع عشر من ربيع الآخر ٢٣٨هـ/الثاني من أكتوبر ٨٥٢م من إلحاق الهزيمة بجند الدَّولة، فهرب سعيد ابن الأمير عبدالرَّحمن الأوسط من المدينة، وأسَر المتمرِّدون عاملها الحارث بن بزيع، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد أن أطلقت قرطبة سراح رهائنهم(**ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٢٩٢-٢٩٣**)، ويبدو أن الأمير محمَّد فضَّل الرضوخ لمطالبهم حتى يأمن استفحال شرورهم؛ خاصَّة أنَّ ذلك قد حدث في أوَّل عهده، ولم يكن قد أمسك بزمام الأمور بعد(**حتاملة، ٢٠٠٠: ٢٧١**)، إلا أنَّ ذلك لم يمنعهم من الاستمرار في العصيان، فأكثروا في العام التَّالي من الإغارة على قلعة رباح[٣٨] (*Calatrava*) المجاورة، مما أدَّى إلى تخريب أسوارها ومقتل الكثير من أهلها وهروب حامية الدَّولة منها، ممَّا استدعى بذل جهود كبيرة لاستعادتها وتشييد حصونها (**ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٢٩٣**).

وعلى الرَّغم من هذا النَّجاح الذي حقَّقه المولَّدون في طليطلة؛ فإنَّهم لم يتمكَّنوا من تكوين جبهة قويَّة قادرة على مواجهة قوَّات الدَّولة، فلجأوا إلى طلب المساعدة من أردونيو الأول ملك أستورياس، الذي اهتمَّ بإذكاء نار الحروب الأهليَّة بينهم، لأنَّ ذلك من شأنه إضعافهم وتمكين الإسبان منهم، فتلقَّف طلب النَّجدة، وأرسل في محرَّم ٢٤٠هـ/ يونيو ٨٥٤م جيشاً كبيراً لمساعدتهم بقيادة أخيه الكونت غثون *(Gaston)* أو *(Gaton)*[٣٩] (ابن عذارى، ١٩٨٣: ٢/٩٤-٩٥)؛ (Perez de Urbel, 1945, I, pp:182-183)، ونظراً لخطورة ما آلت إليه الأمور؛ قرَّر الأمير محمَّد التَّحرُّك بنفسه على رأس قوَّاته للتَّصدي للقوَّات المشتركة (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٢٩٦؛ ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٩٤)، وفي موضعٍ آخر نجد ابن عذاري ينفرد بالقول أنَّ المنذر هو من تولَّى قيادة الحملة رغم صغر سنِّه؛ "ندَبَ (الأميرُ) النَّاسَ إلى لقاء أعداء الله ونصْر دينه، وأنْ يكون كلٌّ على حسْن ظنِّه من الظَّفر ويقينه، فلمَّا انعقدَت راياتُهم، وتأكَّدت على المقارعة نيَّاتُهم، قدَّم عليهم ابنَه المنذر، إذ كان مشهوراً بالبأس، محبوباً في الناس"(ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/١١٣).

ويتضِّح ممَّا ذُكر أنَّ الأمير محمَّد قد وقف بنفسه على رأس جيشه، وانسجاماً مع ما جرت عليه العادة في مثل هذه الحالات؛ فقد كان الأمراء يصطحبون معهم عدداً كبيراً من القادة العسكريِّين، من أجل معاونتهم في ممارسة مهامِّ إدارة الحرب والقيادة الميدانيَّة، مثلما حدث في هذه الحملة، حيث اصطحب الأميرُ معه كلّاً من القائدين أبي مروان عبدالملك بن عبدالله بن أمية وهاشم بن عبدالعزيز، ولمَّا كان المنذر مرافقاً لأبيه فقد قدَّمه على قادة الجيش، تشريفاً له، رغم أنَّنا لا نستبعد أن يكون قد مارس أدواراً قياديَّةً في هذه المرحلة رغم صغر سنه، مما دعا ابن عذاري إلى ما ذكره، وهذا ما تدلِّل عليه الأحداث اللّاحقة، ومن ذلك أنَّه لما عاد الأمير من حملته هذه إلى قرطبة؛ ترك جيشاً محاصراً لطليطلة تحت قيادة ابنه المنذر، ونظراً لصغر سنِّه وحداثة عهده بالنَّواحي العسكريَّة؛ فقد أبقى معه القائدين المذكورين (Conde, 1900, p: 297).

على أيِّ حال؛ خرج الجيش القرطبيُّ في محرم ٢٤٠هـ/يونيو ٨٥٤م، واتَّفقت المصادر التّاريخيَّة على ضخامته، ولكنَّها لم تفصح عن عدد قوَّاته، وسلك الطَّريق الرُّوماني القديم الممتدّ بين قرطبة وطليطلة، وعندما وصل سهول وادي سليط *(Guadacelete)* المارّ بالمنطقة الجنوبيَّة الغربيَّة من طليطلة؛ بدأ الأمير بتنظيم جيشه وإعداد العُدَّة للمعركة، وهناك علم بنبأ وصول حشود جيش مملكة أستورياس، فرأى أن يلجأ إلى الحيلة والمكيدة، حيث قسَّم جيشه إلى قسمين، كمن أحدُهما على شكل مجموعات صغيرة في جنبات نهر التّاج حيث الأشجار الكثيفة، وسار على رأس القسم الآخر إلى طليطلة في عددٍ قليل، وبقي أهلُ طليطلة في مدينتهم معتمدين على

قوَّة تحصيناتها (ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٩٤)، ثم بدأ بنَصب آلات الحرب لضرب الجُدران والتَّحصينات (Cotarelo, 1933, p: 66). وعندما لاحظ أهالي طليطلة قلَّة عدد قوَّات الأمير؛ فرحوا ومنّوا أنفسهم بالنَّصر، وأخبروا الإسبان بذلك، فتشجَّع هؤلاء وأولئك على مهاجمته، ثم خرج المتمرِّدون من مدينتهم والتقوا مع القوات الإسبانيَّة، وبعد اشتباك قصير بين الطَّرفين؛ تظاهرت قوَّات الأمير بالانسحاب والفرار، وذلك من أجل استدراج القوَّات الحليفة إلى وادي سليط، وما أن تمَّ ذلك؛ حتى خرجت لهم الكمائن من كل صوب، وأعملت فيهم القتل (ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/٩٥)، فغطَّت الجثث والأشلاء ميدان المعركة، وأمَّا من بقي حيَّاً ففرَّ عائداً إلى طليطلة، فتحقَّق للأمير نصرٌ مؤزَّر (Quadrado, 1885, p: 128; Conde, 1900, p: 297).

واتَّفقت معظم الرِّوايات التّاريخيَّة أنَّ عدد قتلى القوَّات الحليفة بلغ عشرون ألفاً، منهم ثمانية آلاف من قوَّات النَّجدة الإسبانيَّة (ابن عذارى، ١٩٨٣: ٢/٩٥؛ النويري، ١٩٨٤: ٢٣/٢٢٧؛ ابن كثير، ٢٠١٠: ٦/١٢٠-١٢١؛ ابن الخطيب، أعمال، ١٩٥٦: ٢١؛ بروفنسال، ٢٠٠٠: ٢٣٩)؛ (Quadrado, 1885, p: 128)؛ (Dozy, 1913, p: 301)، وأما كوندي *Conde* (1900, p: 297) فذكر أنَّ عدد قتلى الإسبان ثمانية آلاف، وأهل طليطلة سبعة آلاف. وأوردت بعض المصادر الإسلاميَّة أرقاماً مبالغاً فيها حول عدد قتلى الإسبان، حيث أفاد المؤرِّخ المجهول صاحب كتاب تاريخ الأندلس (٢٠٠٧:١٩٢) أنَّ العدد قد بلغ مائة وخمسة وأربعون ألف قتيل، وذهب ابن العماد (٣٠٩/١٩٨٦:٣) إلى أبعد من ذلك حين قال أنَّ العدد قد وصل إلى ثلاثمائة ألف، وهي أعدادٌ لا تبدو صحيحة، ويرجَّح أن يكون العدد الحقيقي للقتلى ما بين خمسة عشر ألفاً إلى عشرين، بينهم ثمانية آلاف إسباني. وأما الأسرى فلم يُعرف عددهم، وأُشيرَ إلى أنَّ القوَّات القرطبيَّة تمكَّنت من أسر عددٍ كبيرٍ من القساوسة، "الذين "قُدِّموا فضربت أعناقهم، وأخذ المسلمون صُلبانهم فنكَّسوها وكسروها" (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٢٩٧؛ ابن عذارى، ١٩٨٣: ٢/٩٥)، ونظراً لكثرة من قتلوا؛ فقد جمع القرطبيُّون رؤوسهم على شكل جبل اعتلاه المسلمون، يكبِّرون ويهلِّلون ويحمدون ربَّهم ويشكرون، ثم بعث الأمير محمَّد بالرُّؤوس إلى قرطبة والمغرب وسواحل الأندلس، وأما الجثث فبقيت في وادي سليط مدَّة طويلة (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٢٩٧-٢٩٨؛ ابن عذارى، ١٩٨٣: ٢/٩٥)؛ (Cotarelo, 1933, p: 66). وتحسُّباً من أيِّ هجومٍ إسلاميٍّ بعد النصر الذي تحقق في وادي سليط؛ عمل أردونيو الأول على تحصين مدن أسترقة وليون وأمايا وإعمارها وتقويتها(Perez de Urbel, 1945, I, p. 185)، وانتقاماً للقتلى المسيحيين زحف على رأس جيشه حتى وصل إلى ضفاف نهر دويرة، ثم هاجم قورية، وقتل جميع المدافعين عنها، وأخذ قائد حاميتها القاسم بن زيد أسيراً، وفي هذه الحملة هاجم الإسبانُ

سلمنقه، وقتلوا عدداً كبيراً من سكَّانها، وسيق عددٌ آخر للبيع في أسواق النِّخاسة (Lafuente, 1850, III, p: 310; Quadrado, 1885, p: 128).

وعلى الرَّغم من الهزيمة القاسية التي لحقت بمولَّدي طليطلة وحلفائهم الإسبان في وادي سليط؛ فإنَّ ذلك لم يمنعهم من مواصلة التَّمرُّد، لا بل ازداد حقدُهم على قرطبة، بتحريض من المستعربين وعلى رأسهم أولوخيو، فعادت الثورة لتضطرم من جديد، وحينها وقع اختيار الأمير محمَّد على ولده المنذر من أجل إخمادها، وبعثه إليها عام ٢٤٢هـ/٨٥٦م على رأس قوَّة كبيرة وصلت إلى قلعة رباح، وأخذت تنطلق منها لمهاجمة مدينة طليطلة، ثم شدَّدت حصارها وعاثت في أحوازها وخرَّبت مزارع الكرمة، ولم يجرؤ العُصاة هذه المرَّة على مغادرتها، ولكنَّهم ما لبثوا في العام التَّالي أن تمادوا كثيراً، وحاولوا فرض سيطرتهم على المدن القريبة؛ فهاجموا حامية الدَّولة في طَلَبيرة[٤٠] *(Talavera)*، وحينها خرج إليهم قائدها مسعود بن عبدالله العريف فأوقع بهم، وبعث إلى قرطبة بسبعمائة رأس من رؤوس أكابرهم (ابن عذاري، ١٩٨٣: ٩٦/٢؛ ابن الأثير، ١٩٨٧: ١٢٨/٦؛ النويري، ١٩٨٤: ٢٢٧/٢٣)، وانفرد كوندي *Conde (1900, p: 298)* بالقول أنَّ هؤلاء السَّبعمائة كانوا قد وقعوا أسرى خلال فرارهم من طلبيرة بيد المنذر الذي وقف على رأس حملة الدِّفاع عن المدينة، فأمر رجاله بقطع رؤوسهم. ولمَّا نفذَ صبرُ الأمير؛ لجأ عام ٢٤٩هـ/٨٦٣م إلى هدم قنطرة المدينة وتخريب حصونها، ممَّا اضطرَّ أهلها إلى طلب الأمان، فعقده لهم، وعرف بالأمان الأوَّل، واستقرَّت الأوضاع في مدينتهم، ولم يعودوا إلى التمرُّد إلا بعد عشرة أعوام، فخرج إليهم الأمير محمَّد بنفسه، وأرغمهم على الرُّضوخ، وعقد لهم الأمان الثَّاني، ومنذ ذلك الحين انتظمت المدينة تحت سلطة الدَّولة (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٠٥-٣٠٧، ٣٢٩؛ ابن عذاري، ١٩٨٣: ٩٦/٢، ١٠١).

دور الأمير المنذر في مواجهة متمرِّدي الغرب والجنوب الأندلسي: سبق أنْ أشارت الدراسةُ إلى أنَّ من أهمِّ الأخطار التي واجهت الأمير محمَّد؛ تلك القادمة من مناطق الغرب الأندلسي، وبخاصَّة انطلاقاً من ماردة وبطليوس، وتولَّى كِبَرها حينذاك أحدُ كبار قادة مولَّدي تلك المناطق؛ عبدالرَّحمن من مروان الجُلَيقي، الذي شقَّ عصا الطاعة في مدينة ماردة عام ٢٥٤هـ/٨٦٨م، وسارع إلى طلب المساعدة من ألفونسو الثالث وعقد تحالفاً معه، فخرج له الأمير وحاصر ماردة وهدم أسوارها وحصونها، ممَّا أدَّى إلى استسلامه واستقراره في قرطبة(ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٢١-٣٢٢). وأقام الجُلَيقي فيها متظاهراً بالطَّاعة حتَّى فرَّ منها عام ٢٦١هـ/٨٧٥م، ولجأ وجماعتُه إلى قلعة ألانية أي قلعة الحنش *(Alange)* (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٤٧؛ ابن عذاري، ١٩٨٣: ١٠٢/٢)، الواقعة على بعد ٢٠كم جنوب شرق ماردة (بروفنسال، ٢٠٠٠: ٢٤١؛ سالم،

سحر، ١٩٩١: ١٨٥/١). وكان يرافق الجُلَيقي رفيقاه مكحول بن عمر (ت. ٢٦٢هـ/٨٧٦م) وابن شاكر (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٤٧)، واستولى زميله مكحول على قلعة جلمانية[٤١] (*Juromenha*)، ثم اجتمع إليهما خمسمائة فارس، وراحوا يعيثون فساداً في أملاك الدَّولة والنَّاس، وأعملوا القتل في كلِّ من وجدوه من رجال الدَّولة، فخرج الأميرُ لقتالهم (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٤٨)، ولما علم الجليقي بذلك؛ استنجد بسعدون بن غار السُّرُنباقي (ت. ٢٦٧هـ/٨٨١م)[٤٢]، المستأمن لدى الملك ألفونسو الثَّالث، فاستأذن من سيِّده في التَّوجه لمساعدة الجليقي، فتحمَّس الملك لهذا الأمر، وسارع السُّرنباقي على رأس مائة فارس للانضمام إلى قوات ابن مكحول في قلعة جلمانية (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٥٠)؛ (Dozy, 1913, p: 312).

ومن فوره تحرك الأمير محمَّد وضرب الحصار حول القلاع الثائرة، فلما ضاق الجُلَيقي ذرعاً بالحصار؛ طلب الصُّلح، فوافق الأمير على أن ينزل له عن قلعة الحنش وينصرف هو إلى بطليوس، وعلى الرَّغم من الصُّلح الذي تمَّ بين الطرفين؛ فإنه لم يتوقَّف عن حشد الأنصار من أشرار المولَّدين، والإغارة على الأنحاء، وسلْب أموال الناس ومتاعهم (للتَّفاصيل: انظر: ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٥١-٣٥٦). ولم تقف قرطبة مكتوفة الأيدي إزاء ذلك، ففي عام٢٦٢هـ/٨٧٦م، خرج الأمير المنذر على رأس جيش كبير لمحاربة المتمرِّدين، وجعل قيادته للوزير هاشم بن عبد العزيز (ابن القوطيَّة، ١٩٨٩: ١٠١)، وأشاع أنَّ وُجهته الممالك الإسبانيَّة في الشَّمال حتى لا يعلم الجُلَيقي حقيقة مقصده، ولكنَّه عرف عن طريق عيونه في بلاط قرطبة أنَّ بطليوس هي الهدف؛ فغادرها، لأنَّه لم يكن واثقاً من قدرته على الدِّفاع عنها لاتِّساع نطاقها العمراني، ولأنَّها لم تكن مسوَّرة حينذاك (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٦١؛ ابن الأثير، ١٩٨٧: ٢٧٠/٦؛ ابن عذاري، ١٩٨٣: ١٠٣/٢).

وعندما دخل المنذر وهاشم بطليوس وجداها خالية، فسارا في إثر الجُلَيقي الذي اجتمع لديه عددٌ كبيرٌ من العُصاة من مولَّدي ماردة، فلما اجتاز الأخيرُ بإقليم مسطاسة من أعمال أوريط (*Oreto*) في منطقة فحص البلُّوط[٤٣]؛ وجد أهله خائفين من الجيش القرطبي إذا مرَّ بأراضيهم، فخرج عددٌ كبيرٌ منهم مع الجُلَيقي نحو حصن مُنت شلوط (*Monsalud*) الواقع على بعد ٥٠كم جنوب شرق بطليوس، ولكن الجيش القرطبي سبقهم إليه وشحنهُ بالرِّجال، فلجأ الجُلَيقي إلى حصن كركر[٤٤] (*Carcar*) (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٦١، ٣٦٦، ٣٦٨)، في شوَّال ٢٦٣هـ/يونيو ٨٧٧م (ابن الأثير، ١٩٨٧: ٢٧٠/٦؛ ابن عذاري، ١٩٨٣: ١٠٢/٢). وفي تلك الأثناء واصل جيش المنذر وهاشم تعقُّب الجُلَيقي ورجالَه، وكان سكان المنطقة ومعظمهم من المولَّدين من أنصار الجُلَيقي، فتملَّكهُم الخوف وسارعوا إلى إعلان الطَّاعة، وتضرَّعوا إلى هاشم أن يؤمِّنهم على أرواحهم وممتلكاتهم،

فاستجاب لهم بادئ الأمر، ثمَّ ما لبث أن قتل عدداً كبيراً منهم بتهمة موالاة الجُلَيقي، ثمَّ تابع الجيش القرطبي مطاردته، إلى أن وصل قريباً من كركر حيث يتحصن وأنصاره؛ وبدأ بانتساف المنطقة المحيطة والإيقاع بأنصاره من سكانها، بهدف التَّضييق عليه تموينيَّاً وعسكريَّاً، وخلال ذلك خرجت قوَّة من عسكر الجُلَيقي إلى المراعي المجاورة، فانتهز الجيش القرطبي الفرصة وهاجم الحصن، فدافع المسطاسيُّون أصحاب الجُلَيقي عنه، إلا أنَّ القرطبيِّين تمكَّنوا من قتل عددٍ منهم، ونتيجة لهذه التَّطورات اضطرَّ مكحول صاحب جلمانية إلى النُّزول من الجبل في قلَّة من رجاله، فناشبته قوَّات الأمير القتال، وظنَّتْه الجُلَيقي، ممّا أدَّى إلى مقتله **(ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٦١-٣٦٥)**.

وبدأ جنود الأمير برمي الحصن بالحجارة، فقُتل عددٌ كبيرٌ ممَّن فيه، واتَّخذ الجُلَيقي من شجرة بلُّوط كبيرة يابسة ملجأً وملاذاً ومكاناً للمراقبة **(ابن حيّان، ١٩٧٣: ٣٦٧)**، ولمَّا أصبحت أوضاع المحاصَرين في غاية الحرج؛ استنجد حليفُه السُّرنباقي بالفونسو الثَّالث، الذي سارع إلى إعداد قوَّة عسكريَّة لهذا الغرض، ثم أنفذها عبر نهر دويرة، وخلال سيرها دمَّرت بيوت المزارعين، وحرقت المحاصيل العربيَّة **(Cotarelo, 1933, p: 252-253)**. وبعد أن التحم الإسبانُ مع قوَّات السُّرنباقي؛ اجتازت القوَّات الحليفة بمدينة قُلُمرية، وعندما خرج أهلها للدِّفاع عن أنفسهم؛ أوقعت بهم القوَّات الحليفة نكبة كُبرى، فبعثوا إلى المنذر وهاشم يستغيثانهما، فبقي المنذر محاصراً لكركر على رأس قوَّاته، وأما هاشم فتوجَّه للقاء السُّرنباقي وحلفائه الإسبان **(ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٦٩-٣٧٠)**.

وبادر هاشم في الخروج على رأس فرقة قليلة العدد من الفرسان، واستدرج السُّرنباقيُّ هاشماً إلى أرض وعرة مليئة بالممرَّات الضَّيِّقة قرب وادي يانه جنوب بطليوس، ممَّا أدَّى إلى هزيمته ووقوعه في الأسر، ومقتل خمسون من أشراف العرب، وذلك يوم الأحد ١٢شوَّال ٢٦٢هـ/٨يوليو ٨٧٦م، ولما علم المنذر بالأمر، وكان مقيماً على حصار الجُلَيقي بحصن كركر؛ رفع الحصار ثم انصرف ببقيَّة الجيش إلى قرطبة **(ابن القوطيَّة، ١٩٨٩: ١٠١)**. وانفرد المؤرخ الإسباني كوتاريلو *Cotarelo (1933, p: 254)* بالقول أن الجُلَيقي والسُّرنباقي هاجما جيش المنذر خلال طريق العودة على رأس تسعمائة من الفرسان من المولَّدين والمسيحيِّين، وتمكَّنوا من ذبح ما يقرُب من ألف من قواته، وأما هاشم فسيق إلى الجُلَيقي في حصن كركر. ومن هناك قام بإرساله مع القوَّات الإسبانيَّة الحليفة إلى الفونسو الثَّالث في أوفييدو عرفاناً بجميله، واستمرَّ أسيراً زُهاء عامين حتّى تمَّ الإفراج عنه عام ٢٦٤هـ/٨٧٨م، مقابل فدية كبيرة **(ابن القوطيَّة، ١٩٨٩: ١٠١)**.

ومن الوقائع التي كان للجُليقي دورٌ فيها؛ وقعة البربريَّة، ففي عام ٢٦٣هـ/٨٧٦-٨٧٧م جرَّد الأمير محمَّد حملة عسكريَّة ضدَّ مملكة أستورياس، وجعل على رأسها ابنَه المنذر والوليد بن عبد الرَّحمن بن غانم (ت.٢٧٢هـ/٨٨٥م)[٤٥]، فمرَّت في طريقها بطليطلة وغيرها من المدن للاستزادة من الجند والمواد التموينيَّة والعتاد، ثم اجتازتها نحو الشَّمال **(ابن الأثير، ١٩٨٧: ٢٧٣/٦)**. واستنفرت الكور الواقعة في المناطق الثَّغريَّة متطوِّعتَها، فلحقوا بقوَّات الحملة، ولم يكن خروجهم بهدف القيام بحملة جديدة؛ إذ أنَّ عددهم المتواضع لم يكن يسمح بذلك، بل لمجرَّد اللَّحاق بجيش الصَّائفة، حيث لم يكن يضمُّ سوى سبعمائة مقاتل **(ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٨٤)**، وقيل تسعمائة **(ابن الأثير، ١٩٨٧: ٢٧٣/٦)**. ولكنَّهم لم يتمكَّنوا من اللَّحاق به، وعندما علم الجُلَيقي بالأمر، وكان لاجئاً تحت حماية الفونسو الثالث بحصن بطريشة *(La Pedraja)*[٤٦]؛ خرج عليهم بمن معه من الإسبان فأوقع بهم قتلاً وذبحاً حتَّى أُتي على آخرهم، في الوقيعة المعروفة بالبربريَّة**(ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٨٤؛ ابن الأثير، ١٩٨٧: ٢٧٣/٦؛ ابن خلدون، ٢٠٠٠: ١٦٨/٤)**. واستمرَّ الجُليقي بعدها على طاعته وولائه للملك ألفونسو الثَّالث، لا بل وصل به الأمر إلى أبعد من ذلك؛ حيث شاركه هجماته ضدَّ الأراضي الأندلسيَّة، ففي عام ٢٦٧هـ/٨٨١م سار الملك على رأس جيشه مُصطحباً الجُلَيقي، واجتاز نهر دويرة جنوباً حتى وصل إلى قرى كورة ماردة، وأعمل في سكَّانها قتلاً وأسراً، ممَّا أثار غضبه، خاصَّة أنَّ جميع من لحقهم الأذى همْ من أبناء بلده، فمكث في ضيعته بضع سنين مجافياً للملك، ثم عزم على التَّنصُّل من التَّبعيَّة له **(ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٩٦-٣٩٧)**، وعندما حان الوقت المناسب غادر أراضي مملكة أستورياس وتوجَّه إلى مدينة بطليوس ليواصل عيثه وتخريبه، فسيطر لهذا الغرض على جبل يُقال له مُنت شاقر *(Monte Secor)* بالقرب من شنتمريَّة الغرب *(Santamaria de Algarve)* **(ابن القوطيَّة، ١٩٨٩: ١٠١-١٠٢)**، في كورة أكشونبة **(مكي، المقتبس، الحواشي الختاميَّة، ص١٢٦)**.

واستمراراً للسِّياسة التي انتهجها الأمير محمَّد تجاه الجُلَيقي في بطليوس؛ كان لا بدَّ له من استئناف التَّحرك لمواجهة عيثِه وتخريبه في منطقة الغرب الأندلسي، ففي عام ٢٧١هـ/٨٨٤م سيَّر الأمير ولده المنذر في جيش كبير لقتاله، ولمَّا علم بذلك؛ تحصَّن بجبل أشيرغُزّه*(Esparragoza)*[٤٧] **(ابن الأثير، ١٩٨٧: ٣٤٣/٦)**، فانتهز المنذر فرصة خلوِّ بطليوس من الحامية، وقام بتدمير حصونها وحرق أجزاء منها **(ابن الأثير، ١٩٨٧: ٣٤٣/٦)**. ولمَّا طال تمرُّد الجُلَيقي، ولمَّا لم يتمكَّن الأمير محمَّد من هزيمته؛ مال إلى مسالمته واشترط أنْ تُمنح له البشرتل الواقعة قبالة بطليوس على الضفَّة الأخرى من وادي يانه، فأجابه الأمير إلى طلبه مقابل الإقلاع

عن حياة التَّمرد، وانصرف إلى الرَّفاهية والدِّعة في بطليوس، ثمَّ اضطرَّ الأمير للاعتراف باستقلاله فيها (ابن القوطيَّة، ١٩٨٩: ١٠٢). وأمَّا السُّرنباقي حليف الجُلَيقي، فكان قد انطلق من قلعة بُقيرة عام ٢٦٧هـ/٨٨١م باتِّجاه الشَّمال، تمشِّياً مع سيرته في التَّمرد ضدَّ الأمويِّين في قرطبة، وتمكَّن من السَّيطرة على شنترين وقُلُمرية، وعندما شعر الفونسو الثَّالث أنَّ هذه التَّحركات من شأنها أن تهدِّد أمنه؛ جمع قوَّاته وتوجَّه إلى قُلُمرية لقتاله، فنجح في مهمته، وتمكَّن من القضاء عليه في يونيو من العام المذكور (Cotarelo, 1933, p: 271).

وهكذا انتهى تمرُّد الجُلَيقي وحلفاؤه ضدَّ الدَّولة بعد أن استمرَّ لما يقرب من عشرين عاماً، ممَّا أدَّى إلى استنزاف مواردها البشريَّة والماديَّة، وأتاح المجال للممالك الإسبانيَّة لرصِّ صفوفها وتقوية جبهتها الدَّاخليَّة والتَّقدُّم نحو الجنوب والشَّمال الشَّرقي على حساب الأندلسيِّين.

وفي الوقت الذي كانت فيه قرطبة مشغولة بمقارعة متمرِّدي الغرب الأندلسي؛ كانت مضطرَّة للتَّصدِّي لتمرُّد عمر بن حفصون، الذي قويت شوكته، وأخذ يغير على أطراف كورة ريَّة تخريباً ونهباً ثم يعتصم بأوكار جبل بُبَشتر، فشعرت العاصمةُ الأموية بالفزع، وجرَّد الأمير محمَّد ضدَّه حملة فاشلة بقيادة عامل ريَّة عامر بن عامر، فهزمه ابنُ حفصون واستحوذ على محلَّته؛ وازداد قوَّةً بانضمام مزيدٍ من الأشرار إلى صفوفه، فعزل الأميرُ عاملَ ريَّة، وولاها عبد العزيز بن عبَّاس الذي سار لقتال ابن حفصون، فعجز هو الآخر عن إخضاعه مما اضطرَّه إلى مهادنته ومسالمته (ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/١٠٤)، ثم ما لبث أن عاد إلى ما كان عليه من الشر؛ فسيَّر إليه الأميرُ محمَّد قائدَه هاشم بن عبدالعزيز على رأس قوة كبيرة عام ٢٧٠هـ/٨٨٣م، وشدَّد عليه الحصار وأسر العديد من أتباعه، فاستسلم وعفا الأمير عنه، وأسكنه قرطبة (ابن القوطيَّة، ١٩٨٩: ١٠٤؛ ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/١٠٤)، وكان بإمكانه قتله، ولكنَّه خشي إن فعل ذلك أنْ يهُبَّ أتباعُه للأخذ بثأره فيشتدُّ عودُ ثورتهم (حتاملة، ٢٠٠٠: ٢٨١).

ومكث ابن حفصون في قرطبة لبعض الوقت، ثم هرب منها وتحصَّن في جبل بُبَشتر، وعاد إلى سيرته الأولى في التَّخريب، وانضمَّ إلى صفوفه حارث بن حمدون من بني رفاعة الذي خلع الطَّاعة وثار في مدينة الحامة الواقعة في جبال ريَّة شمال شرق مالقة، فقرَّر الأمير محمَّد استئصال شأفتهما، ووجَّه لهما في صيف ٢٧٣هـ/٨٨٦م ابنَه المنذر، ورافقه قائدُه محمَّد بن جهور (ابن عذاري، ١٩٨٣: ٢/١٠٥-١٠٦)، وقيل هاشم بن عبدالعزيز (Conde, p. 324)، وبدأ المنذر بالزَّحف على مدينة الحامة لمقاتلة ابن حمدون، فسارع ابن حفصون إلى إنجاد حليفه، واجتمع المتمرِّدان بالحامة، فحاصرها المنذر لمدَّة شهرين، ولما قرُبت مؤنُها على النَّفاذ؛ خرج ابن

حفصون وحليفه واشتبكا مع المنذر في معركة عنيفة هُزم فيها ابنُ حفصون وجُرح، ممّا اضطرَّه للعودة ثانية مع أصحابه والتَّحصُّن في الحامة (ابن عذاري، ١٩٨٣: ١٠٦/٢)، وبينما كان المنذر مُقيماً على حصارها؛ جاءته الأنباء من قرطبة بوفاة أبيه الأمير محمَّد في التَّاسع والعشرين من صفر٢٧٣هـ/الرَّابع من أغسطس٨٨٦م، فرفع الحصار وقفل عائداً إلى العاصمة عبر ممرَّات جبال مالقة، من أجل الوقوف على مراسيم الدَّفن، وتسلُّم مسؤوليَّاته الدُّستوريَّة (ابن الأبّار، ١٩٨٥: ١١٩/١، ١٣٨)، ليصبحَ الحاكم السَّادس للدَّولة الأمويَّة في الأندلس خلال عصر الإمارة.

خاتمة

بعد أن تمَّت هذه الدِّراسة بمشيئة الله وعوْنه، فإنَّه يُمكن الخُروج بالحقائق والنَّتائج الآتية:

- تمثَّلت أهمُّ الأخطار التي أحاقت بالإمارة الأمويَّة في الأندلس خلال القرن الثَّالث الهجري/التَّاسع الميلادي بمملكتَيِّ أستورياس وبمبلونة اللَّتين امتدَّت أراضيهما من خليج بسكونية وجبال البرينيه شمالاً حتَّى نهر دويرة جنوباً، ثمَّ ثورات المولَّدين في الثَّغر الأعلى وطليطلة ومارِدة وبطليوس والجنوب الأندلسي.
- شارك الأميرُ المنذر في الحملات الجهاديَّة ضدَّ الممالك الإسبانيَّة منذ نعومة أظفاره، إذ كان في السَّابعة عشرة من عمره عندما اصطحبه أبوه الأمير محمَّد في أولى حملاته عام ٢٤٦هـ/٨٦٠م، ولمَّا شبَّ واشتدَّ عودُه وصار الشخصيَّة الثَّانية في الدَّولة؛ أمَّرهُ أبوهُ على معظم الحملات العسكريَّة إلى دار الحرب في الشَّمال، فقادها بنفسه.
- زاد عددُ غزوات المنذر ضدَّ الممالك الإسبانيَّة على عشر، منذ الحملة الأولى حتَّى حملة عام ٢٧٠هـ/٨٨٣م، وتمكنَّت بعضُ الحملات من تحقيق انتصارات لافتة كموقعة فجِّ المركويز عام ٢٥١هـ/٨٦٥م وموقعة أيبار عام ٢٦٩هـ/٨٨٢م، وبالمقابل مُني بالهزيمة في بعضها كتلك التي تلقَّاها وأخوه الحكم عام ٢٥٤هـ/٨٦٧م على أرض ليون وبييرثو، وفي بعض الحملات تكبَّد الطَّرفان الأندلسي والإسباني خسائر فادحة في الأرواح دون أنْ يتمكَّن أيٌّ منهما من انتزاع النَّصر، كاللقاء الذي حدث بين المنذر وبينهم عند ضفاف نهر سِيا عام ٢٥٩هـ/٨٧٢-٨٧٣م.
- بالغت كلٌّ من المصادر المسيحيَّة والإسلاميَّة في ذكر أعداد القتلى والجرحى والأسرى من الجانبين، واتَّضح ذلك في أكثر من مناسبة.

- ركَّزت الحملات العسكريَّة التي جرَّدتها الدَّولة ضدَّ الممالك الإسبانيَّة ومنها تلك التي قادها المنذر جُلَّ جهدها على ممارسة الحرب الاقتصاديَّة من خلال حرق المزارع وتقطيع الأشجار وتدمير البيوت وهدم الحصون، ولم يستثمر القادةُ المسلمون نتائج هذه الحملات في استعادة المدن والقلاع الواقعة في مناطق النفوذ الإسباني، ووضع حاميات عسكريَّة فيها لإدامة السَّيطرة عليها، على غرار ما كان يقوم به الإسبان.
- أدَّى نشاط المنذر الجهادي إلى جعل الإسبان في الشَّمال يقفون موقف الدِّفاع عن مناطق نفوذهم، وعدم اللُّجوء إلى الهجوم إلا في مرَّات معدودة – مقارنة مع عدد الهجمات الإسلاميَّة – وبخاصَّة في عهد الملك الفونسو الثَّالث الذي وصل في إحدى المرَّات إلى مدينة ماردة، وفي الوقت نفسه أسهمت النشاطات الجهاديَّة في منع الإسبان من التمدُّد جنوب نهر دويرة، وظلَّ هذا النَّهر يمثِّل حدّاً فاصلاً بينهم وبين المسلمين خلال عهد الأمير محمَّد.
- غابت الأهدافُ النَّبيلةُ عن أجندة وممارسات قادة حركات التمرُّد المولَّديَّة، واتَّضح أنَّ اهتمامهم قد انصبَّ على ممارسة سياسة القتل والنَّهب والتَّخريب بهدف الاستحواذ على مزيد من النُّفوذ على حساب سيادة الإمارة الأمويَّة، ممَّا كان له أثرٌ كبيرٌ في إهدار مقدَّرات الدَّولة البشريَّة والاقتصاديَّة، وإتاحة المجال للإسبان لتقوية نفوذهم في مناطقهم والحصول على موطئ قدم على ضفاف نهر دويرة، وعليه ترى الدراسةُ أنَّ مصطلح "ثورات" الذي درجت المراجع الحديثة على استخدامه في توصيف هذه الحركات لا يتوافق مع الواقع التاريخي.
- تراوحت سياسةُ بني قَسِي في الثَّغر الأعلى ما بين الولاء للدَّولة والتَّحالف مع الممالك الإسبانيَّة، في سياسة تفتقر إلى المبادئ الدِّينيَّة والأخلاقيَّة، ولا تتحكَّم بها سوى المصالح الفئويَّة الضَّيِّقة، ووصل بهم الأمرُ إلى مشاركة الإسبان في قتال الأندلسيِّين، واتَّضح من خلال الدراسة أنَّ الأمير المنذر قد بذل جهوداً كبيرة في محاولاته الرَّامية لفرض سيادة الدَّولة على مناطق الثَّغر الأعلى، ولكنَّ هذه الجهود لم تمنع سرقسطة من الاستمرار في التَّمرد، ولم يخلف ذلك سوى القتل والدَّمار وإتلاف مزارع الناس ومعايشهم.
- رافق الأمير المنذر والدَه في الحملات التي شنَّتها الدَّولة ضدَّ المولَّدين المتمرِّدين في طليطلة سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م، وكان حينها في الثَّالثة عشرة من عمره، وتمخَّض عن هذه الحملة نصرٌ كبيرٌ على المتمرِّدين وحلفائهم الإسبان في موقعة وادي سليط، ثم شارك بعد

سنتين في حملة مماثلة، وأسهمت حملاتُه ضدَّ الجليقي في كَبح جِماحه ودفعه إلى الاستقرار في بطليوس عام ٢٧١هـ/٨٨٤م والتزام الهدوء، وأخيراً كان للمنذر دورٌ في محاربة ابن حفصون في مدينة الحامة عام ٢٧٣هـ/٨٨٦م، ولكنَّ موتَ أبيه حالَ دون مُواصلة ذلك.

الهـــوامـــش:

(١) محمَّد بن عبد الرَّحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرَّحمن الدَّاخل: تولَّى الحكم بعد وفاة أبيه عام ٢٣٨هـ/٨٥٢م، وأشادت المصادر التّاريخيَّة بمناقبه؛ فوصفته بكمال العقل والبلاغة وفصاحة اللِّسان والتَّمكُّن من فنون العلم والأدب، وكان قد بدأ عهده باتِّباع نظام حكم إداريٍّ مركزيٍّ بهدف إحكام سيطرته على مجريات الأمور في البلاد، فأخضع الدواوين وبيت المال للرَّقابة المباشرة، وأقرَّ معظم وزراء أبيه، ووضع نظاماً جديداً للوزارة يمتاز فيها الوزراء بنوع من التَّعظيم، وقدَّم أهل الشام منهم على غيرهم، واعتنى بالنَّواحي المعماريَّة الدِّينيَّة، وبخاصَّة في جامع قرطبة، واهتمَّ بالجيش والأسطول، وزاد من المرتزقة في الجيش، واهتمَّ بالقضاء، وعمل على توثيق العلاقات مع الإمارة الرستميَّة في المغرب الأوسط، وتوفِّي عام ٢٧٣هـ/٨٨٦م، انظر:(ابن القوطيَّة، ١٩٨٩: ٩٦؛ ابن حيَّان، ١٩٧٣: ١٣٦-١٣٧؛ ابن الأثير، ١٩٨٧: ١١٨/٦؛ ابن الأبّار، ١٩٨٥: ١١٩/١؛ ابن الخطيب، أعمال، ١٩٥٦: ٢٢).

(٢) أردونيو الأول: ابن راميرو الأول *(Ramiro I)* (٨٤٢-٨٥٠م/٢٢٧-٢٣٥هـ)، تولَّى حكم المملكة عام ٨٥٠م/٢٣٥هـ، وقام بتحصين الثُّغور وإصلاح القلاع وإخماد الثَّورات الدّاخليَّة في بسكونية، وواجه خطر النُّورمان والمسلمين، توفِّي عام ٨٦٦م/٢٥٢هـ، انظر: (عنان، دولة، ١٩٩٧: ٣٥٧/١-٣٥٨).

(٣) الفونسو الثالث: ابن أردونيو الأول، تولَّى الحكم عام ٨٦٦م/٢٥٢هـ، ثار عليه حاكم غاليسيا الكونت فرويلا *(Fruela)*، الذي أصبح ملكاً لأستورياس (٩١٠-٩٢٤م/٢٩٧-٣١٢هـ) فانتصر عليه بمساعدة الأشراف القوط، وتعرَّضت دولته لمؤامرات وثورات عديدة طوال فترة حكمه بسبب الضَّرائب وغيرها، توفِّي عام ٩١٠م/٢٩٧هـ، انظر: عنان، دولة، ١٩٩٧: ٣٥٨/١-٣٥٩).

(٤) بمبلونة: مدينة في بلاد البشكنس، بينها وبين سرقسطة مائة وخمسة وعشرون ميلاً، تحيط بها الجبال الشَّاهقة من كلِّ الجهات، انظر: (الحميري، ١٩٨٤: ١٠٤).

(٥) وشقة: أو أشقة، من أعمال بربطانية *(Boltana)* في الثَّغر الأعلى، شمال شرق الأندلس، ذات حصون ومعاقل، وتقع على بعد ٨٣كم شمال شرق سرقسطة، انظر: (الحموي، ١٩٧٧: ١/١٩٩؛ حسين ، أضواء، ١٩٩٧: ١١).

(٦) تُطيلة، مدينة تتَّصل بأعمال وشقة، غزيرة المياه، كثيرة الأشجار، اختطَّها الأمير الحكم الرَّبضي(١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م)، على بعد سبعة عشر فرسخاً شمال غرب سرقسطة، على الضِّفَّة اليسرى لنهر إيبرو، انظر: (الحموي، ١٩٧٧: ٢/٣٣؛ أبو الخيل، ٢٠٠٢: ٣٧).

(٧) سيمانكس: أو شنت منكش، مدينة تقع جنوب غرب بلد الوليد *(Valladolid)*، على بعد ١٠كم منها، على أحد فروع دويرة، انظر: (عنان، الآثار، ١٩٩٧: ٣٢٠).

(٨) سمورة: مدينة مسوَّرة بنيت فوق مرتفع صخري يشرف على الضِّفَّة اليمنى لنهر دويرة، بينها وبين البحر ستُّون ميلاً، وهي من قواعد المسيحيِّين في الشَّمال، انظر: (الحميري، ١٩٨٤: ٣٢٤؛ عنان، الآثار، ١٩٩٧: ٣٥٢).

(٩) سرقُسطة: مدينة على الضِّفَّة اليمنى لنهر إيبرو في شمال شرق الأندلس، تعرف بالمدينة البيضاء، وتتَّصل أعمالُها بأعمال تُطيلة، وتحيط بها البساتين، انظر: (الحموي، ١٩٧٧: ٢/٢١٢؛ الحميري، ١٩٨٤: ٣١٧).

(١٠) لاردة: مدينة في الثغر الأعلى على أحد فروع نهر إيبرو، وتقع إلى الشَّرق من مدينة وشقة، جدَّد بناءها إسماعيل بن موسى بن قسي عام ٢٧٠هـ/٨٨٣م، ولها حصن منيع، انظر:(الحميري، ١٩٨٤: ٥٠٧).

(١١) طرطوشة: مدينة جبليَّة تقع شمال شرق الأندلس، على مصب إيبرو في المتوسط، على بعد ٢٠٠كم جنوب شرق سرقسطة، وعليها سور منيع، واشتهرت بكثرة خشب الصنوبر في جبالها، انظر: (الحميري، ١٩٨٤: ٣٩١؛ أبو الخيل، ٢٠٠٢: ٢٧).

(١٢) شنترين: من مدن ولاية إكسترامادورا *(Extermadura)*، وتقع على بعد ٥٠كم شمال شرق أشبونة،على الضِّفَّة اليسرى لنهر التّاج، وهي على جبل شاهق، وبينها وبين بطليوس أربع مراحل، انظر: (الحميري، ١٩٨٤: ٣٤٦؛ عنان، الآثار، ١٩٩٧: ٤٢٥).

(١٣) قُلُمريـــة: مدينة جبليَّة، تبعُد عن قورية أربعة أيام، وعـــن شنترين ثـــلاث مراحـــل، انظـــر:(الحميري، ١٩٨٤: ٤٧١).

(١٤) قورية: من نواحي ماردة، تقع في منتصف المسافة بين ماردة وسمورة، بينها وبين قنطرة السيف مرحلتان، وهي من أحصن المعاقـــل، كثيـــرة الفـــواكـــه وبخاصَّة العـــنب والتِّين، انظر: (الحموي، ١٩٧٧: ٤١٢/٤؛ الحميري، ١٩٨٤: ٤٨٥).

(١٥) أشبونة: ويقالُ لها لشبونة، من كـــور باجـــة، وتقـــع غـــربيها على الأطلسي، انظر:(الحميري، ١٩٨٤: ٦١).

(١٦) ماردة: مدينة على الضِّفَّة الشَّمالية لوادي يانه *(Guadiana)*، إلى الشَّمال الغربي من قرطبة، لها سور منيع من بناء لوذريق *(Rodrigo)*(٧١٠-٧١١م/٩١-٩٢هـــ)، مشهورة بالرُّخام، انظر: (الحميري، ١٩٨٤: ٥١٨-٥١٩).

(١٧) بطليوس: مدينة على وادي يانه، تبعد عن ماردة أربعون ميلاً، وعن قرطبة ستُّ مراحل، كانت قرية صغيرة، ثم عمرها وزاد عليها عبدالرَّحمن بن مروان الجُلَيقي، ولها ربَض كبير، انظر: (ابن سعيد، (د. ت): ٣٦٤/٢؛ الحميري، ١٩٨٤: ٩٣). وللاطِّلاع على أهميَّة بطليوس وحصانتها، انظر: (سالم، سحر، ١٩٩١: ١٦١/١-١٦٣).

(١٨) بُبَشتر: جبل يقع على بعد ٤٠كم شمال شرق جبال رُندة من أعمال كورة ريَّة، ما بين رُندة ومالقة، وفي أعلاه حصن بُني على صخرة صمَّاء مربَّعة ذات ينابيع كثيرة، وله قرى كثيرة وأشجار ومياه، انظر: (الحموي، ١٩٧٧: ٣٣٣/١؛ الحميري، ١٩٨٤: ٧٩).

(١٩) المنذر بن محمَّد بن عبدالرَّحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرَّحمن الداخل: أبو الحكم، أمُّه أمُّ ولد تدعى أثل، وضعته لسبعة أشهر من الحمل عام ٢٢٩هـــ/٨٤٣م، وأما صفاته الخَلقية؛ فأسمر، طويل، كثُّ اللِّحية، أجعد، يخضِّب بالحنَّاء، وفي وجهه أثر جدري، وله من الأبناء الذُّكور خمسة، ومن الإناث ثمانية، تولَّى الحكم بعد والده الأمير محمَّد عام ٢٧٣هـــ/٨٨٦م، ووُصف بالشَّجاعة ومضاء العزيمة، ولكنَّه لم يمكث طويلاً؛ إذ مات وهو محاصر لابن حفصون في قلعة بُبشتر عام ٢٧٥هـــ/٨٨٨م، انظر: (ابن عذاري، ١٩٨٣: ١١٣/٢؛ ابن الأبّار، ١٩٨٥: ١٢٠/١، ١٢٩، ١٣٧، ١٣٨).

(٢٠) ألبة والقلاع: منطقة تقع عند منابع نهر إيبرو، وتمتد غرباً حتَّى بُرغُش *(Burgos)* وشمالاً حتى بسكونية *(Golvo de Viscaya)*، وجنوباً حتى دويرة، وضمَّت العديد من الحصون والقلاع، انظر: (أبو مصطفى، ١٩٩٧: ١١٠).

(٢١) سلمنقة: أو شلمنقة، مدينة على الضِّفَّة اليمنى لنهر تورمس *(Tormes)* أحد فروع نهر دويرة، سيطر عليها الإسبان عام ١٤٠هـ/٧٥٧م، انظر: (عنان، الآثار، ١٩٩٧: ٣٥٧).

(٢٢) وادي الحجارة: مجموعة الحصون الممتدَّة بمحاذاة جبل الشَّارات من أطراف كورة سرقسطة الجنوبيَّة حتَّى نهر التّاج وأطراف طليطلة، ويرجع الفضل للأمير محمَّد في بناء معظمها، انظر: (أبو مصطفى، ١٩٩٧: ١٠٣-١٠٤؛ مؤنس، ٢٠٠٤: ٣٤٥).

(٢٣) عبدالرَّحمن بن محمَّد، أبو المطرِّف: من الأدباء والشُّعراء المطبوعين، شارك في العديد من الحملات ضد أعداء الدَّولة، كصائفة ٢٤٩هـ/٨٦٣هـ، ومات عام ٢٥٩هـ/٨٧٣هـ، انظر: (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٢١٤؛ ابن الأبّار، ١٩٨٥: ٣٦٧/٢).

(٢٤) عيسى بن الحسن بن أبي عبده: ينتمي لأسرة من أكبر أسر بني أمية في الأندلس، عرف عنه الدقة في التدبير والجودة في الرأي، تولى الحجابة للأمير محمَّد بعد عيسى بن شهيد (ت. ٢٤٣هـ/٨٥٧م) عام ٢٤٧هـ/٨٦١م، وكانت علاقته مع الوزير هاشم بن عبدالعزيز سيئة، ولا يعرف عامُ وفاته، انظر: (الخلف، ٢٠٠٣: ٤٤/١، ٤١٩).

(٢٥) ليون: مدينة تقع في منتصف أستورياس، شمال غرب الأندلس، على أحد فروع نهر دويرة، انظر: (عنان، الآثار، ١٩٩٧: ٣٤٩).

(٢٦) استرقة: تقع على بعد ٢٧ ميلاً جنوب غرب مدينة ليون، وهي من المدن التي استولت عليها مملكة أستورياس في عهد الأمير عبدالرَّحمن الدَّاخل، انظر: (عنان، الآثار، ١٩٩٧: ٣٦١).

(٢٧) بقيت شبكة الطُّرق التي بناها الرومان قروناً عديدة يُستفاد منها للانتقال المدني والعسكري، وهي مرصوفة بالبلاط والحجارة، واستخدمها المسلمون، انظر: (السيد، سحر، ١٩٩١: ١٨٠/١).

(٢٨) عمروس بن عمرو بن عمروس: أحد زعماء مولَّدي الثغر الأعلى، ثار عام ٢٥٦هـ/٨٧٠هـ، واستولى على وشقة التي كانت تتبع قرطبة، وتحالف مع المسيحيِّين، فأخرج الأميُر محمَّد إليه جيشاً، وتمكّـَن من دفعه على الفرار من وشقة، انظر: (ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٢٥؛ ابن عذاري،١٩٨٣: ١٠٠/٢).

(٢٩) زوجة مطرف بن موسى بن موسى هي فليشكيطة *(Velasquita)* بنت شانجة صاحب بنبلونة، وليست بنت غرسيه بن ونقة، انظر: (مكي، المقتبس، الحواشي الختامية، ص٦١٧).

(٣٠) قلعة أيّوب: بناها أيّوب بن حبيب اللَّخمي عام ٩٧هـ/٧١٦م بالقرب من سالم، تمتاز بحصانتها وغناها بالأشجار والكروم، وأما دروقة؛ فبلدة بُنيت على سفح جبل، تبعدُ عن قلعة أيّوب ثمانية عشر ميلاً، انظر: (الحميري، ١٩٨٤: ٢٣٥، ٤٦٩).

(٣١) هاشم بن عبد العزيز: أحد أهمّ وزراء الأمير محمَّد وقادته العسكريِّين، أصله من موالي عثمان بن عفَّان الذين حازوا الرياسة بإلبيرة، وولَّاه الأمير محمَّد كورة جيان *(Jaen)*، وعلى يديه بنيت أبدة *(Ubeda)* وأكثر معاقلها الحصينة، انظر: (ابن الأبّار، ١٩٨٥: ١/١٣٧؛ ابن سعيد، (د.ت):٢/٩٥). وأصبح "النَّاهض بأعباء الخلافة، والمتصرِّف في وجوه النَّظر، والمستولى على أسباب التَّدبير"، انظر: (الخشني، ١٩٩٤: ١١٠-١١١)، وكان البلاط الملكي الإسباني يعتبره من أكبر القادة والفرسان النُّبلاء وأشجعهم، ومن أخطر الشَّخصيَّات الإسلاميَّة على المسيحيِّين، انظر: *(Conde, 1900, p: 324)*.

(٣٢) محمَّد بن عبدالملك بن جهور بن يوسف، من وزراء الأميرين محمَّد والمنذر، سقاهُ هاشم بن عبدالعزيز سمّاً فمات في مطلع عهد المنذر عام ٢٧٣هـ/٨٨٦م، انظر: (ابن القوطيَّة، ١٩٨٩: ١١٣).

(٣٣) أوفييدو: مدينة تقع في القسم الأوسط من خليج بسكونية، في أعلى المنطقة الشماليَّة الغربيَّة من البلاد، وإلى الشَّرق من غاليسيا، وتحدُّها من الجنوب جبال كنتبرية *(Cantabria)*، انظر: (عنان، الآثار، ١٩٩٧: ص٣٦١).

(٣٤) روطة: على مقربة من تطيلة، وهي من قواعد ثغر سرقسطة، وتقع على ضفة نهر الخالون *(Jalon)* أحد فروع نهر إيبرو، واشتهر الحصن بمنعته، انظر: (عنان، الآثار، ١٩٩٧: ١١٣).

(٣٥) عبيدالله بن يحيى بن يحيى بن كثير الليثي: أبو مروان، من كبار المحدِّثين، رحل إلى العراق وسمع من شيوخها، ومات في الأندلس عام ٢٧٩هـ/٩١٠م، انظر: (الحميدي، ٢٠٠٨: ٣٨٦).

(٣٦) بُرغُش: بناها الفونسو الثَّالث فوق منحدر على عدد من التلال، على نهر أرلانزون *(Arlanzon)* أحد فروع دويرة، وبنى حولها سوراً، ولها قلعة حصينة، انظر:(عنان، الآثار، ١٩٩٧: ٣١٠).

(٣٧) أولوخيو: راهب مسيحي من زعماء حركة الاستشهاد التي ظهرت في عهد الأميرين عبدالرَّحمن الأوسط(٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢١-٨٥٢م) وابنه محمَّد، وكان من أكبر زعمائها المحرِّضين على

الثَّورة، أعدمهُ الأمير محمَّد وصديقته الرَّاهبة ليوكريثيا بقرطبة عام ٢٤٤هـ/٨٥٩م، للمزيد عنهما وعن حركة الاستشهاد؛ انظر: (نعنعي، (د. ت): ٢٣٤-٢٣٧)؛ *(Perez de Urbel, 1945, I, p: 183)*؛ *(Dozy, 1913, p: 268-288)*.

(٣٨) قلعة رباح: حصن منيع في أعالي وادي يانه في إقليم لامانشا *(La Mancha)*، بالقرب من مدينة *(Ciudad Real)* الحاليَّة، وتقوم مكانها "قلعة رباح القديمة" *(Castillo de calatrava la Viega)*، انظر: (بروفنسال، ٢٠٠٠: ٢٣٨).

(٣٩) جاستون: كونت مدينة بيرثو *(Conde del Bierzo)* في غاليسيا، وأخو زوجة أردونيو الأوَّل، أصله من مزارعي قرية *(Triacastela)* بالقرب من *(Tosos)*، وساهم في تعمير وتمصير مدينة أسترقة، انظر: (بروفنسال، ٢٠٠٠: ٢٣٩)؛ *(Dozy, p. 301)*؛ *(Cotarelo, 1933, p: 65)*، يُشار أنَّ ابن حيَّان (١٩٧٣: ٢٩٧) ذكر أنَّ الذي قاد المسيحيّين في هذه الحملة شخص اسمه برمند القس.

(٤٠) طَلبيرة: من أعمال طليطلة، وتبعد عنها ٧٠ ميلاً، قديمة البناء، تقع على نهر التّاج، ولها حصون عديدة، وكانت تشكِّل حاجزاً بين المسلمين والمسيحيِّين، انظر: (الحموي، ١٩٧٧: ٤/٣٦-٣٧؛ الحميري، ١٩٨٤: ٣٩٥).

(٤١) جلمانية: حصن منيع على بعد ٢٥كم جنوب شرق بطليوس، على الضِّفَّة اليسرى لوادي يانه، وهو من أعمال يابرة، على الحدود مع البرتغال، انظر: (سالم، سحر، ١٩٩١: ١/١٨٩، ٢٥٠).

(٤٢) السُّرُنباقي: أحد أخطر زعماء المولَّدين في الغرب الأندلسي، وينحدر من أصول قوطيَّة، قال عنه مؤيدوه تيمُّناً: إنما هو السُّرور الباقي، وكان قد سيق أسيراً من سواحل البرتغال على يد النُّورمان خلال (٢٤٤-٢٤٦هـ/٨٥٨-٨٦١م)، وعندما أُطلق سراحه كوَّن عصابة وتحالف مع الملك الفونسو الثَّالث، فأسكنه مدينة بورتو، وصارت جرائمه متداولة بين النَّاس انطلاقاً من أحد الجبال الذي سمِّي باسمه، وأنشأ محكمة خاصَّة به، انظر: (ابن القوطيَّة، ص١٠١؛ ابن حيَّان، ١٩٧٣: ٣٤٤، ٣٥٠؛ ابن الخطيب، أعمال، ١٩٥٦: ٢١).

(٤٣) فحص البلُّوط: إقليم سهلي فسيح حاضرته حصن غافق، المعروف اليوم بإقليم البلالطة *(Belalcazar)*، وأطلق عليه فحص البلُّوط لكثرة أشجار البلُّوط فيه، (سالم، سحر، ١٩٩١: ١/١٧٩).

(٤٤) كركر: حصن يقع في موضع مدينة *(Alburquerue)* الحاليَّة على بعد ٢٢كم شمال بطليوس، إلى الشَّمال الشَّرقي من ماردة، ويبدو أنَّه هو نفسه *(Carquere)* بالقرب من لاميغو *(Lamego)* في البرتغال، انظر: (مكي، المقتبس، الحواشي الختاميَّة، ص٦١٥، ٦٤٦).

(٤٥) وليد بن عبد الرَّحمن بن غانم: ولي للأمير محمَّد بن عبد الرحمن خطَّتي الوزارة والمدينة، من أبرز القادة العسكريين خلال عهد الأمير محمَّد بن عبد الرَّحمن الأوسط، واختصَّ وليدُ هذا بصداقة هاشم بن عبد العزيز، وإياه خاطب من موضع أسره دون الوزراء، وكان وليد كاتباً أديباً مرسِّلا بليغاً وتوفِّي عام ٢٧٢هـ/٨٨٥م، انظر: (ابن الأبّار، ١٩٨٥: ٣٧٤/٢).

(٤٦) بطريشة: يقع على بعد ٢٠كم جنوب بلد الوليد، و١٠كم عن مجرى نهر دويرة، ولا يبعد عن مكان الموقعة إلا بنحو ٧٠كم إلى الجنوب الشرقي منه، انظر: (مكي، المقتبس، الحواشي الختاميَّة، ص٦٦٥).

(٤٧) ورد اسم هذا الجبل لدى ابن عذاري (١٩٨٣: ١٠٥/٢): اشبرغزة، ويبدو أنَّه اللَّفظ الصَّحيح. ويقع في مقاطعة بطليوس، بين وادي يانه وجبال المعدن، انظر: (عنان، دولة، ١٩٩٧: ٣٠٧/١).

المصادر والمراجع العربيَّة والمعرَّبة:

(١) ابن الأبّار، محمَّد بن عبدالله(ت. ٦٥٨هـ/١٢٦٠م): **الحلَّة السَّيراء**، جزءان، تحقيق: حسين مؤنس، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

(٢) ابن الأثير، علي بن محمَّد(ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٣م): **الكامل في التَّاريخ**، ١١جزء، تحقيق: عبدالله القاضي، ط١، دار الكتب العلميَّة بيروت، ١٩٨٧م.

(٣) بروفنسال، ليفي: **تاريخ إسبانيا الإسلاميَّة من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبيَّة (٧١١-١٠٣١م)**، ترجمة: علي اليحيى، علي منوفي، ط٣، المجلس الأعلى للثَّقافة، مدريد، ٢٠٠٠م.

(٤) حتاملة، محمَّد عبده: **الأندلس التَّاريخ والحضارة والمحنة**، ط١، مطابع الدُّستور، عمَّان، ٢٠٠٠م.

(٥) ابن حزم، علي بن سعيد(ت. ٤٥٦هـ/١٠٦٤م): **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق: ليفي بروفنسال، (د. ط)، القاهرة، دار المعارف، (د. ت).

(٦) حسين، حمدي عبدالمنعم: **أضواء جديدة حول ثورات طليطلة في عصر الإمارة الأمويَّة (١٣٨-٣٢٠هـ/٧٥٦-٩٣٢م)**، (د. ط)، مركز الاسكندريَّة للكتاب، الإسكندريَّة، ١٩٩٧م.

ثورات البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأمويَّة، (د. ط)، مؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندريَّة، ١٩٩٣م.

(٧) الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت. ٦٢٦هـ/١٢٢٩م): **معجم البلدان**، ٥أجزاء، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

(٨) الحميدي، أبو عبدالله، محمَّد بن فتوح(ت. ٤٨٨هـ/١٠٩٥م): **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق: بشَّار معروف، محمَّد بشَّار، ط١، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠٠٨م.

(٩) الحميري، محمَّد بن عبد المنعم(ت. ٩٠٠هـ/١٤٩٥م): **الرَّوض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عبَّاس، (د.ط)، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤م.

(١٠) ابن حيَّان، حيَّان بن خلف القرطبي(ت. ٤٦٩هـ/١٠٧٦م): **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، تحقيق: محمود مكي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣م.

(١١) الخشني، محمَّد بن حارث بن أسد (ت. ٣٦٦هـ/٩٧٦م): **قضاة قرطبة وعلماء أفريقيَّة**، تحقيق: عزت العطَّار الحسني، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤م.

(١٢) ابن الخطيب، لسان الدين، محمَّد بن عبدالله (ت. ٧٧٦هـ/١٣٧٤م): **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط٢، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م.

الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤أجزاء، تحقيق: محمَّد عبدالله عنان، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٤م.

(١٣) ابن خلدون، عبدالرَّحمن بن محمَّد(ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م): **تاريخ ابن خلدون**، ٧أجزاء، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكَّار، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠م.

(١٤) الخلف، سالم بن عبدالله: **نُظم حكم الأمويِّين ورسومهم في الأندلس**، جزءان، ط١، الجامعة الإسلاميَّة، المدينة المنوَّرة، ٢٠٠٣م.

(١٥) أبو الخيل، محمَّد بن إبراهيم: **الأندلس في الرُّبع الأخير من القرن الثَّالث الهجري**، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز، الرِّياض، ٢٠٠٢م.

(١٦) ابن الدلائي، أحمد بن عمر(ت. ٤٧٨هـ/١٠٨٥م): **نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار**، تحقيق: عبدالعزيز الأهواني، (د. ط)، منشورات معهد الدِّراسات الاسلاميِّة في مدريد، (د. ت).

(١٧) سالم، السَّيد عبدالعزيز: **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة**، (د. ط)، مؤسَّسة شباب الجامعة، الاسكندريَّة، ١٩٩٩م.

(١٨) سالم، سحر السَّيد: **تاريخ بطليوس الإسلامية، أو غرب الأندلس في التَّاريخ الإسلامي**، جزءان، مؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندريَّة، ١٩٨٩-١٩٩١م.

(١٩) ابن سعيد، علي بن موسى المغربي(ت. ٦٨٥هـ/١٢٨٦م): **المغرب في حلى المغرب**، جزءان، تحقيق: شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

(٢٠) الصُّوفي، خالد: **تاريخ العرب في الأندلس**، ط٢، جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٨٠م.

(٢١) ابن عذاري المراكشي، محمَّد بن محمَّد(ت. ٦٩٥هـ/١٢٩٥م)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، جزءان، تحقيق: ج. س. كولان، ليفي بروفنسال، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.

(٢٢) ابن العماد، شهاب الدين، عبدالحي بن أحمد(ت. ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م): **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ١٠ أجزاء، تحقيق: عبدالقادر ومحمود الأرناؤوط، ط١، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٦م.

(٢٣) عنان، محمَّد عبدالله: **دولة الإسلام في الأندلس**، (٤) أجزاء، ط٤، القاهرة، ١٩٩٧م.

الآثار الأندلسيَّة الباقية في إسبانيا والبرتغال، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م.

(٢٤) ابن القوطيَّة، محمَّد بن عمر (ت. ٣٦٧هـ/٩٧٧م): **تاريخ افتتاح الأندلس**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٢، دار الكتاب المصري – القاهرة، دار الكتاب اللبناني – بيروت، ١٩٨٩م.

(٢٥) ابن كثير، إسماعيل بن عمر(ت. ٧٧٤هـ/١٣٧٢م). (٢٠١٠): **البداية والنهاية**، ج١٠، تحقيق:مأمون محمَّد سعيد الصَّاغرجي، ط٢، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ٢٠١٠م.

(٢٦) كحيلة، عبادة: **تاريخ النَّصارى في الأندلس**، ط١، (د. ن)، (د. م)، ١٩٩٣م.

(٢٧) مجهول: **تاريخ الأندلس**، تحقيق: عبدالقادر بوباية، ط١، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ٢٠٠٧م.

(٢٨) أبو مصطفى، كمال السيد: **دراسات أندلسيَّة في التَّاريخ والحضارة**، (د. ط)، مركز الإسكندريَّة للكتاب، الإسكندريَّة، ١٩٩٧م.

(٢٩) المقري، شهاب الدين، أحمد بن محمَّد(ت. ١٠٤٠هـ/١٦٣١م): **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ٨ أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.

(٣٠) مؤنس، حسين: **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، (د.ط)، مكتبة الأسرة، (د.م)، ٢٠٠٤م.

(٣١) نعنعي، عبدالمجيد: **تاريخ الدولة الأمويَّة في الأندلس**، (د. ط)، دار النهضة، بيروت، (د.ت).

(٣٢) النُّويري، أحمد بن عبد الوهاب(ت. ٧٣٣هـ/١٣٣٣م): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ٣٢جزءاً، تحقيق: محمَّد جابر، (د. ط)، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.

المراجع الأجنبية :

(1) Cardoso, Elsa Raquel (2015): ***Diplomacy and Oriental Influence in the Court of Cordoba (9th-10th centuries),*** University of Lisbon, Faculty of Arts, Department of History, Lisbon.

(2) Chapman, Charles (1930): ***A History of Spain***, The Macmillan Company, New York.

(3) Conde, Jose Antonio (1900): ***A History of the Dominion of the Arabs in Spain***, trans. Jonathan Foster, V.I, Goerge Bell, London.

(4) Cotarelo, Armando Valledor (1933): ***Historia Critica y Documentada de la Vida y Acciones de Alfonso III EL Magno***, Libreria Genaral de Victoriano Suarez, Madrid.

(5) Dolgado, Juan de Dios de la Rada (1860): ***Viaje de SS. MM. Y AA. Por Castilla, Leon, Asturia y Galicia, Aguado***.

(6) Dozy, Reinhart (1913): ***Spanish Islam, A History of the Moslims in Spain***, trans. by Francis G. Stokes, Frank Cass, Chatto & Windus, London.

(7) Fernandez, Luis Suarez: ***Historia de Espana Antigua y Media***, Ediciones Rialp, Madrid, 1976.

(8) Isaac, Francisco, Maria: ***Sesnando Davides. Alvazil, Cônsul, Estratega e Moçárabe***. Dissertação de Mestrado em História. Lisboa, Faculdade de Letras da Universidade de Lisboa, 2013.

(9) Lafuente, Modesto (1850): ***Historia General de Espana***, III, Madrid.

(10) Martinez de Velasco (1880): ***Leon y Castilla del Ano 850 al 1350***, de G. Estrada, Madrid.

(11) O'Callaghan, J., (1975): ***A History of Medieval Spain***, Cornell University Press, Ithaca - London.

(12) Perez de Urbel, Fray Justo (1945): ***Historia del Condado de Castilla, Consejo Superior de Investigaciones Científicas***, Escuela de Estudios Medievales, Madrid.

(13) Puyol, Julio (1926): ***Orígenes del Reino de León y de sus Instituciones Políticas***, Imprenta Viuda e Hijos de Jaime Ratés Martín, Madrid,.

(14) Quadrado, Jose (1885): ***Asturias y Leon, Establecimiento Tipográfico***, editorial de Daniel Cortezo, Barcelona.